المعنى في القرآن بين الإدراك العقلي والإدراك الحسي
دراسة تطبيقية تركيبية

د٠ وفاء حسن علي زيادة (*)

المقدمة :

عنوان هذا البحث هو "المعنى في القرآن بين الإدراك العقلي والإدراك الحسي. دراسة تطبيقية تركيبية"، ومن أسباب اهتمامي بالموضوع ما لاحظته من حرص القرآن في بعض المواضع على استخدام صور حسية للتعبير عن أفكار تجريدية ، وكذلك وجود ملاحظات متناثرة للمهتمين بالدلالة من اللغويين بهذه القضية ودارت فيها مناقشات، وتناولتها تخصصات أخرى مثل الفلسفة وعلم النفس والبلاغة. وكذلك تعدد تفسير التركيب الواحد بسبب اختلاف السياق الوارد فيه ، واختلفت فيه المعاني النحوية . وقد رأيت أن دراسة المعنى في هذه التراكيب القرآنية ضرورة مُلحة تحتاج إلى جهود كثيرة، فقد تجيب عن الأسئلة الآتية:

أولاً: ما أبرز التراكيب القرآنية التي تُظهر استعمال الصور الحسية للتعبير عن أفكار تجريدية ؟

ثانياً: ما مزايا استعمال الدلالات الحسية في هذه المواقف عن الدلالات التجريدية؟

ثالثاً: هل القيام بعمل تحليل تركيبي لها يمكن أن يوضح بعض الخفايا اللغوية التي تُفيد القضية؟

رابعاً: ونظرا لأن قضية الإدراك فيها جانب فلسفي فهل تقوم الأفكار الفلسفية في هذا الموضوع بدور في إضاءة جانب من الموضوع أو تقديم تفسير له؟

خامساً: نظرا لأن القرآن يخاطب النفس الإنسانية، فهل الجوانب النفسية لها دور في تفضيل استعمال الحواس للتعبير عن الأفكار المجردة؟

(*) الأستاذ المساعد بقسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية- كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

سادساً: ما دور علم لغة النص عند تحليل هذه التراكيب؟

إن دراسة هذا الموضوع بشكل مستقل يشكل صعوبة نظرا لأن الأفكار فيه متناثرة عند بعض الفلاسفة والمفسرين الذين حاولوا توضيح النص القرآني، وكان الاهتمام به بوصفه قضية فلسفية نفسية، وليست لغوية في المقام الأول. وخطة البحث في الموضوع تتكون من المقدمة والتمهيد والدراسة التطبيقية والخاتمة، ففي المقدمة عنوان الموضوع وأسباب اختياري له، والأسئلة التي يمكن أن يجيب عنها، والمنهج الذي أتبعه، والخطة التي يسير عليها ، والمشكلات التي يمكن أن يواجهها البحث من ندرة الدراسات القرآنية اللغوية التي تهتم بكيفية وصول المفاهيم التجريدية إلى الإنسان رغم اختلاف المستويات الفكرية والثقافية التي يتعامل معها القرآن بدءًا من العرب بظروفهم في مجتمعاتهم إلى الأمم المتنوعة حتى الآن، والتمهيد سجلت فيه الأفكار التي اعتمد عليها البحث بوصفها الأساس النظري الذي يقوم عليه البحث، والدراسة التطبيقية التي تدرس التراكيب القرآنية التي يظهر فيها البعد العقلي والبعد الحسي ، والخاتمة فيها مجمل ما وصل إليه البحث من أهم النتائج ، ثم قائمة بالمراجع التي استعان بها البحث.

والمنهج الذي يسير عليه البحث هو انتقاء الأمثلة القرآنية التي توضح الفكرة، ودراستها بالمنهج الوصفي الذي يقف أمام كل مثال ويحلله في سياقه، مع الاستعانة بالتحليل النصي الذي يبحث في تماسك التراكيب ووسائل الربط فيها والوصول إلى دلالتها المقصودة من خلال السياق اللغوي والتداولي لها ، فانفتاح علم النص على كل ما من شأنه أن يحقق التواصل جعله ينفتح على علوم كثيرة مثل الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها. والله يوفقنا إلى ما يحب ويرضى.

**

تمهيد :

قال تعالى" وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"(١)، فالله تعالى خلقنا لا علم لنا ، ثم خلق لنا أسباب العلم والإدراك ، ومنها السمع والبصر والفؤاد ، وهي وسائل الإدراك حسية وعقلية ، فإذا كانت الآذان وسيلة حاسة السمع ، والأعين وسيلة حاسة البصر، فإن القلوب وسيلة الفهم أو الفقه، قال تعالى" لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"(٢). فالقرآن يقرن بين السمع والأبصار والأفئدة ، فإذا كانت الأذن وسيلة السمع، والعين وسيلة البصر، فالقلب وسيلة من وسائل الإدراك. فيظهر اهتمام القرآن بتزويد الإنسان بوسائل الإدراك الحسية كالسمع والبصر، ووسائل الإدراك العقلية كالأفئدة التي جعلها وسيلة إدراك القلوب "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا". وكذلك قوله تعالى" فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"(٣). فالقلوب ترى وتدرك بجانب الأبصار.

ولقد قام المفسرون بمحاولات في هذه التراكيب ،وكذلك تحدث البلاغيون في استعمال الحواس للوصول إلى إدراك بعض الصور العقلية ، وبخاصة فيما يتعلق بالاستعارة، فقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أن الشبه في الاستعارة قد يؤخذ من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواسّ للمعاني المعقولة(٤). ومن ذلك استعارة القِسْطاس للعدل ونحو ذلك من المعاني المعقولة التي تُعْطى غيرَها صِفةَ الاستقامة والسَّداد، كما استعاره الجاحظ في فصلٍ يذكر فيه علم الكلام، فقال: هو العِيار على كل صِنَاعة، وهكذا إذا قيل في النَّحو: إنه ميزان الكلام ومِعْياره، فهو أخذُ شبهٍ من شيء هو جسمٌ يُحَسُّ ويشاهَد، لمعنًى يُعْلَم ويُعْقَل ولا يدخل في الحاسّة(٥). ويتحدث عن أثر هذه الطريقة في

(١) (٧٨) سورة النحل.

(٢) (١٧٩) سورة الأعراف.

(٣) (٤٦) الحج.

(٤) الجرجاني – أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (٤٧١هـ)– أسرار البلاغة – قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر– مطبعة المدني بالقاهرة .ص ٦٦.

(٥) السابق . ص ٦٧.

المخاطب فيمثل بعبارة: عسل الأخلاق[١] "أي أنه في حال رضاه يملؤك سعادة ، فالسعادة فكرة مجردة ولكن تذوقها كحلاوة العسل يبقى أثرها في النفس ، وإذا خالفته ذقت مرارة السَّلَع"[٢].

فالتأثير النفسي الذي يُبقيه هذا الاستعمال واضح ، مما يجعل السامع يعيش نفس إحساس المتكلم. لكل ذلك فإن القضية هنا تحتاج إلى بحث على ثلاثة محاور ؛هي : اللغة والإدراك عند الإنسان وعلم النفس لنرى تأثير هذا على السامع أو المتلقي.

أما اللغة وهي أساس دراستنا لمجموعة من التراكيب القرآنية فتعتمد الدراسة فيها على معايير علم لغة النص Criterions of Textuality، وما تشكله من أسس لتحليل النصوص ، وقد بُنيت هذه الأسس على انفتاح على سلاسل العلاقات الأفقية أو السينتجماتيكية Syntagmatic ، التي تربط أجزاء التركيب عن طريق النحو Syntax، وكذلك العلاقات الدلالية ، والانفتاح على السياقات الاجتماعية Social. contexts وما يرتبط بها من فهم دلالة التراكيب، والانفتاح على مفاهيم العلوم الأخرى التي تساعد اللغويين على دراسة النصوص ، مثل الفلسفة والمنطق وعلم النفس والعلوم الإحصائية وغيرها. فلم تعد النظرة الانغلاقية لفهم النصوص فيما عرفناه ب"البنيوية" Structuralismوالاهتمام باللغة في ذاتها، بل أدخلت معايير النصية كل ما يوضح مقاصد النص وأغراضه، سواء في ذلك ما ارتبط بالسياق اللغوي وما كان له دور في سياق الموقف .

لذا تقوم هذه الدراسة النصية على التراكيب القرآنية المختارة التي تعتمد على التعبير عن المفاهيم العقلية بالدلالات الحسية ، فندرس الارتباط الشكلي فيها أو السبك Cohesion والارتباط الدلالي أو الالتحام Coherence كذلك ، أو حسب ترجمة د.تمام حسان هما الترابط الرصفي والترابط المفهومي[٣]. وسائر المعايير التي توضح دلالة التراكيب مثل الارتباط بالموقف Situationality وفكرة القصدية

(١) السابق . ص ٦٩.

(٢) السلع : شجر مر ينبت باليمن.

(٣) دي بوجراند ،النص والخطاب والإجراء ،ترجمة د.تمام حسان. ص ١٠٣.

Intentionality من وراء صياغة التركيب بطريقة معينة. فقد صاغ القرآن الكلام بناء على استراتيجية معينة ليتلقاها المستمع أو القارئ .

وهنا يمكن الكلام عن الاستبدال حيث أتى التركيب القرآني بطريقة معينة، وهي التي استعمل فيها الدلالات المحسوسة بدلا من المفاهيم العقلية، وكأنه قصد إلى تجنب المعاني المباشرة في اللغة ليصوغ الكلام بطريقة أخرى مقصودة ، وأقول مقصودة إذ لم يحدث هذا مرة أو مرتين ، بل تكرر هذا النهج القرآني. وهنا لابد من الانتباه إلى المقاصد والمواضعات(١)، فبعض الدلالات تحتاج إلى استثارة إمكانات اللغة لتظهر تجلياتها في التأثير، وهو يظهر في أفضل صورة وهي آي القرآن، فالتركيب الموجود جزء من نسيج النص ، ولكن تفسيره تركيب آخر ولكنه غائب عن النص ، وهذا يجعلنا نتكلم عن العلاقات الرأسية ، ليس في الكلمات وفئاتها ولماذا استبدل صيغة بصيغة أو كلمة بأخرى، بل في تفضيل تركيب على آخر غائب ، وإن كان مُستدعًى في توضيح دلالة التركيب.

وفكرة القصدية هي فكرة تداولية منشؤها عند فلاسفة اللغة ؛ ج. ل. أوستين(١٩١١-١٩٦٠) وتلميذه ج. سيرل (١٩٣٢-١٩٧٥).وكانا من الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة التحليلية عند الألماني غوتلوب فريجه ،الذي جعل أولى مهام الفلسفة :البحث في اللغة، وذلك لفهم الكون ومشكلاته ،فاللغة هي الأداة المعرفية الضرورية لفهم علاقتنا بالعالم والبشرية ،ثم طورالفيلسوف لودفيج فيتجنشتاين أفكار فريجه ، ووصل إلى ضرورة مراعاة الجانب الاستعمالي(٢).

وهذا التحليل في إطار علم النص متسع النظرة ، فمنتج النص أو الكاتب أو المتكلم صاغ التراكيب بشكل معين ، فما تأثير هذه الطريقة على المتلقي؟ وكذلك الموقف أو ظروف الكلام ومدى مناسبة ذلك. فالتحليل اللغوي لهذه التراكيب يتم في

---

(١) انظر آن روبول وجاك موشلار،التداولية اليوم – علم جديد في التواصل، ترجمة :د.سيف الدين دغفوس ود. محمد الشيباني ومراجعة د. لطيف زيتوني ،المنظمة العربية للترجمة ، دار الطليعة للنشر ط١ /٢٠٠٣، ص ٣٣.

(٢) د.مسعود صحراوي ،التداولية عند العلماء العرب :دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ،دار الطليعة – بيروت ط١ ،٢٠٠٥ ،ص ١٨-٢٣.

محاولة تعرف مزايا هذا النهج في تعامل لغة القرآن مع الدلالات العقلية، وكيفية توصيلها إلى السامع، ولماذا تميزت الدلالات الحسية في هذا الجانب؟

والإدراك هو المحور الثاني لهذه الدراسة ، وهو قضية فلسفية هامة ، وقد كان للحواس دور كبير فيها. ف"ابن سينا" يقسم قوى النفس إلى مدركة ومحركة، والمدركة تنقسم إلى ظاهرة وباطنة، وأما المدركات فالظاهر منها الحواس الخمس، وفي الباطن هناك القوى الخيالية التي تحفظ ما أدته الحواس من الصور المحسوسة. فالقوة الخيالية حافظة لا يكون ما فيها إلا مأخوذًا عن الحس(١). ومن القوى التي يمتلكها الإنسان قوة الوهم ، وهي قوة تدرك في المحسوسات معاني غير محسوسة، وكما يقول ابن سينا بأن السمع والبصر خُلقا لإدراك ما بَعُد، واللمس لإدراك ماقَرُب، والشم والذوق لتمييز الغذا، والخيال ليحفظ ذلك فلا يحتاج في كل وقت إلى تجربة، والوهم ليدرك ما لابد منه من معان غير محسوسة ، والذِّكر لئلا يحتاج الوهم دائما إلى تجربة(٢). فالصور الموجودة في خيالنا منتزعة من المحسوسات من حولنا ليكون لدينا الخبرات والتجارب التي نستعين بها، فعقولنا تمتلئ بالمرئيات والمسموعات والمحسوسات التي أدركتها الحواس، والأمور الأخرى التي أدركتها دون أن تكون محسوسة، قد تكون انطباعات أو غير ذلك. وهو ما يوضحه قوله تعالى "قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ"(٣).

وقد عرَّف الفلاسفة المسلمون الإدراك، بأنه حضور الشيء لدى المدرِك، فمناط الإدراك هو الحضور، ومن المحال أن يكون الشيء غائبا عن الآخر، ويستطيع هذا الآخر أن يدرك الغائب(٤). وذكر الإمام الغزالي أن الإدراك أَخذ صُورَة الْمدْرَك أو أَخذ مِثَال حَقِيقَة الشَّيْء لَا الْحَقِيقَة الخارجية فإن الصُّورَة الخارجية لَا تحل الْمدْرَك بل مِثَال

(١) ابن سينا الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله (٤٢٧هـ)، المبدأ والمعاد، باهتمام عبد الله نوراني، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٩٩٨م. ص٩٣.

(٢) السابق . ص ٩٦.

(٣) السابق . ص ٩٦.

(٤) أحمد القبانجي، النفس في الفكر الإسلامي، المؤسسة الإسلامية للترجمة ط١، ١٣٧٨هـ. ص ٧.

منه فإن المحسوس بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ هُوَ الْخَارِج بل مَا تمثل فِي الحاس، فالخارج هُوَ الَّذِي المحسوس انتزع مِنْهُ، والمحسوس هُوَ الَّذِي وَقع فِي الْحَال فشعر بِهِ، وَلَا معنى لشعوره إِلَّا وُقُوعه فِيهِ وانطباعه بِهِ، وَكَذَلِكَ الْمَعْقُول هُوَ مِثَال الْحَقِيقَة المرتسم فِي النَّفس لِأَن الْعقل يجرده عَن جَمِيع الْعَوَارِض وإن كان يحتاج إِلَى التَّجْرِيد(١).

ويربط الغزالي بين القلب والحواس قائلا: اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس؛ لأن القلب أيضاً خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركاً بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس(٢). ويجعل طريق إدراك العالم الحواس، فيقول: والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها ولو انعدمت السماء والأرض، وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال، والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجًا من خيال الإنسان وقلبه(٣).

فالحواس إذن طريق أساسي ورئيس لإدراك الإنسان، وعن طريقها تتكون الصور في الخيال والقلب.أما التأثير النفسي للإدراك بالحواس فيعالجه علم النفس المعرفيCognitive Psychology الذي قدم دراسات ربطت بين الإدراك والحواس، وجعلت دور الحواس عظيمًا في المعرفة، فالظواهر المعرفية العليا مثل التفكير والتذكر والتنظيم الدلالي، في رأي علم النفس المعرفي، ماهي إلا نتيجة لأحداث تقع حول الكائن الحي، ومن ثم فإن دراسة الإشارات الحسية ربما تمدنا بمفاتيح لمعرفة كيف تطورت مثل هذه الظواهر العقلية العليا، فتخزين المعلومات في الذاكرة بشكل مجرد

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (٥٠٥هـ)- معارج القدس في مدراج معرفة النفس،دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط٢، ١٩٧٥.ص٦١.

(٢) الغزالي، أبو حامد (٥٠٥هـ) - إحياء علوم الدين- دار المعرفة – بيروت.ج ٢٠/٣.

(٣) السابق، ج٢١/٣.

تم بناء على معرفتنا بالطبيعة الواقعية للخبرات الحسية، الأمر الذي يساعدنا على تحديد مدى هذا التجريد وشكله[١].

هذا العلم ينظر أيضا إلى المعرفة الحسية أنها أساس المعرفة ، حيث يتم تجريد الشكل الواقعي الحسي فيما حولنا ليشكل طريقة تفكيرنا ومستواه كذلك.وقد جعل "علم النفس الإدراكي نقطة الالتقاء بين العالم الداخلي للإنسان والواقع الخارجي تكمن في الجهاز الحسي، وقد توصلت الدراسات فيه إلى أن الأشياء التي تم تخزينها في الذاكرة عبارة عن تمثيلات مجردة abstract representations للعالم الواقعي تحدث بشكل متكرر، ويبدو أن مفتاح معالجة المعلومات الحسية وتفسيرها المعرفي ما هو إلا تجريد لها، فالمعلومات على المستوى الحسي تكون نوعية محددة جدا، في حين تكون على المستوى الآخر مجردة بشكل عام. وتتحدد فكرتنا عن العالم من خلال تكامل ما نعرفه عنه بالمعنى المجرد، ومن خلال ما نحسه منه بالمعنى العياني النوعي المحدد[٢]. فالمعلومات والأفكار المجردة كانت حسية نوعية محددة، ثم أصبحت تُشكل فكرنا عن العالم في صورة عقلية عامة مجردة، تتكامل فيها المعاني المجردة مع الواقع الحسي .

فالقرآن في الأمثلة التي ندرسها يعالج القضايا التجريدية العقلية بوسائل حسية، فإضافة إلى ما قاله الفلاسفة وعلماء النفس إنه يصنع صورة كلية للمعنى يدركها كل من أحس، وقد قرَّب عبد القاهر الجرجاني هذا حين ذكر أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وسبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منه خاتم أو سوار[٣]. فحُسن صياغة المعنى بالتحام مكونات الكلام تؤدي صورة كاملة كما يُصنع السوار من الذهب ، ففي قوله تعالى "أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ"[٤] حين نُركِّب : يثنون "حركة جسمية" + صدورهم + علة ذلك للاستخفاء.

---

(١) روبرت سولسو، علم النفس المعرفي، ترجمة د.محمد نجيب الصبوة، ود.مصطفى محمد كامل، ود. محمد الحسانين الدق. مكتبة الأنجلو المصرية.ط ٢. سنة٢٠٠٠. ص ١١٤.

(٢) السابق ص١١٧.

(٣) الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)- دلائل الإعجاز في علم المعاني. ص٢٢٤.

(٤) سورة هود آية ٥.

نخرج بصورة كاملة نراها بأعيينا، وتترك في نفوسنا انطباعا بذلهم وحقارتهم وخوفهم.

وفي تحليلات الجرجاني للقرآن تتعانق المعاني مع الألفاظ والعقل مع الجمال، ففي فهمنا للاستعارة وأساسها التشبيه، و"التشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول، وتُستفتى فيه الأفهام والأذهان"(١). وكذلك كثير من جميل الكلام لابد أن تصل إلى المراد منه بالعقل، ذكر عبد القاهر أن طريقَ العلْمِ بما يُراد إثباتُه في هذه الأجناس الثلاثةِ التي هي الكنايةُ والاستعارةُ والتمثيلُ: المعقولُ دونَ اللفظِ من حيثُ يكونُ القصْدُ بالإثباتِ فيها إلى معنى ليس هو معنى اللفظِ، ولكنَّه معنىَ يُستَدلُّ بمعنى اللفظِ عليه، ويُسْتنبَطُ منه(٢).

فالصور القرآنية وإن تنوعت طرق إدراكها إلا أنها تصل إلى العقل أو النفس، فتستقر وتصبح من مكنونات النفس التي استخلصتها مما أحسته بما زودها الله به من وسائل الحس وأدواته.

وقد لاحظ اللغويون هذه العلاقة بين الدلالات الحسية والدلالات المجردة في مجال التطور اللغوي، فالباحثون مجمعون في نشأة الدلالة على أنها بدأت بالمحسوسات، ثم تطورت، كما ذكر أ.د. إبراهيم أنيس، إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الإنساني ورقيه، فكلما ارتقى التفكير العقلي جنح إلى استخراج الدلالات المجردة والاعتماد عليها في الاستعمال(٣). وفي مجال التطور الدلالي يحدث انتقال من المجال المحسوس إلى المجال المجرد بصورة تدريجية ، وقد تظل الدلالتان جنبا إلى جنب، وقد تنزوي الدلالة المحسوسة، ويكثر استعمال الدلالة المجردة(٤).

إن التطور في دلالة المفردات يتجه من المحسوس إلى المجرد، وربما حدث بمرور الزمن أن اختفت الدلالة الحسية، أما في حال التراكيب اللغوية التي تستعمل

---

(١) الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (٤٧١هـ) – أسرار البلاغة. ص ٢٠.

(٢) الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص٣٦٥.

(٣) د.إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو ١٩٨٠.ص ١٦١-١٦٢. وانظر كذلك أ.د.أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط٣/ ١٩٩٢ ص ٢٣٨.

(٤) السابق.ص ١٦٢.

المحسوسات للتعبير عن مجردات فإنها ترسم بها صورة كاملة يستخلص بها العقل المعاني التي تظل عالقة بالنفس من خلال الصورة المجردة فيه، وكلما قرئ التركيب أحدث هذا التأثير النفسي. فليس ما يحدث في المفردات يكون في التراكيب، فالمفردات عندما يتطور معناها أو يتجرد فهناك دلالة أخرى تدخل على اللفظ ، وقد تقوى إحداهما على حساب الأخرى، أما تجريد التركيب فهو تجريدُ صورةٍ تختزن في العقل أو النفس، إنه تكوين دلالي جديد حينما نتصور عندما نقرأ قوله تعالى "مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" أن هناك مدنًا للظالمين، وسيكون في المقابل مدن المؤمنين، فالصورة لهذا تُولِّد تصورات وخيالات لا تتوقف، وتتزاحم المعاني وتتصور الظالمين في هذه المدن يذهبون ويتكلمون ويتعاملون ونسمع أصواتهم، إنهم يسكنون هذه المدن، فهل تحب أن تكون مع الذين سكنوا في مساكن الظالمين؟

ونظرا لارتباط الدلالات الحسية غالبا بأعضاء جسم الناس، التي هي أدوات الحس، فقد ربط بعض اللغويين بينها وبين الاستعمالات المجازية، فكما قال أولمان عن أعضاء جسم الإنسان إنها مركز للمجازات اللغوية. فجسم الإنسان من القطاعات البارزة التي تنتقل الكلمات منها وإليها، أو هو مركز من مراكز الانتشار والجاذبية[1]. ولتأثير هذه الأعضاء نرى تكوين الصور في التراكيب اللغوية تعتمد على أعضاء الجسم وأشكالها وحركاتها، ودلالات كل ذلك. فاليد ما بين قبض وبسط، والعين وشكلها، وكذلك دلالة حركاتها ما بين استقرار واضطراب، والقدم ما بين ثبات وزُلول، والأذن ما بين وظيفتها وتعطيلها..إلخ . والقرآن وجد العرب يستعملون أسماء هذه الأعضاء ووظائفها في التعبير عن معان مجازية، فقدَّم لنا صورا تُعجِز عن الإتيان بمثلها دلالةً وتأثيرًا في النفس.إن القرآن إما أنه صنع صورا تُفهَم دلالتها باستعمال هذه الأعضاء ،مثل "قري عينا"، أو صنع صورا ندركها بهذه الأعضاء مثل "يثنون صدورهم".

(١) أولمان ، ستيفن أولمان ،دور الكلمة في اللغة، ترجمه وعلق عليه أ.د. كمال بشر، مكتبة الشباب . ١٩٧٥. ص١٦٦.وانظر كذلك اكتساب المحسوسات أولا عند الطفل . د. محمود السعران،علم اللغة مقدمة للقارئ العربي– الناشر: دار الفكر العربي ط ٢ – القاهرة ١٩٩٧.ص٢٢٢.

الدراسة التطبيقية:

أولاً: قُلْ" أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ"

ورد في القرآن استعمال فريد لكلمة "أذن"، وهو قوله تعالى "وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[١].

قبل أن نحلل هذا التركيب القرآني (هو أذن خير لكم) نذكر وصف كلمة (أذن) وجمعها (آذان) في القرآن، فوظيفة الأذن السمع والوعي، فهي من وسائل الإدراك، يظهر هذا في قوله تعالى: "أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا"[٢]. ووصف الأذن بالواعية في قوله تعالى "وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ"[٣].

أما أقوال اللغويين والمفسرين:

فقد ذكر الخليل بن أحمد أنه" يقال للرجل: هو أُذُنٌ، وللمرأة: هي أُذُنٌ، وللقوم كذلك، أي يسمَعُ من كل أحد"[٤]. وعند الجوهري: ورجلٌ أُذُنٌ، إذا كان يسمع مقال كلِّ أحد ويقبله[٥].

وذكر الشوكاني أنهم "كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى وَجْهِ الطَّعْنِ وَالذَّمِّ: هُوَ أُذُنٌ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: يُقَالُ: رَجُلٌ أُذُنٌ: إذَا كَانَ يَسْمَعُ مَقَالَ كُلِّ أَحَدٍ .. إذَا آذَوْا النبيّ وبسطوا فيه ألسنتهم، وَبَلَغَهُ ذَلِكَ اعْتَذَرُوا لَهُ، وَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ يَسْمَعُ كُلَّ مَا يُقَالُ لَهُ فَيُصَدِّقُهُ، وَإِنَّمَا أَطْلَقَتِ الْعَرَبُ عَلَى مَنْ يَسْمَعُ مَا يُقَالُ لَهُ فَيُصَدِّقُهُ أَنَّهُ أُذُنٌ، مُبَالَغَةً، لِأَنَّهُمْ سَمَّوْهُ بِالْجَارِحَةِ الَّتِي هِيَ آلَةُ السَّمَاعِ، حَتَّى كَأَنَّ جُمْلَتَهُ أُذُنٌ سَامِعَةٌ، لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْبَاطِلِ، اغْتِرَارًا مِنْهُمْ بِحِلْمِهِ عَنْهُمْ، ثُمَّ أَجَابَ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ هَذَا، فَقَالَ: قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

---

(١) (٦١) التوبة.
(٢) (١٩٥) الأعراف.
(٣) (١٢) الحاقة.
(٤) الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن ابن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (١٧٠هـ)، كتاب العين ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال، مادة أ ذ ن.٨/٢٠٠.
(٥) الجوهري- تاج اللغة وصحاح العربية- مادة أ ذ ن. وكذلك الأزهري تهذيب اللغة مادة أذن.

لَكُمْ .. كَأَنَّهُ قِيلَ: نَعَمْ هُوَ أُذُنٌ، وَلَكِنْ نِعْمَ الْأُذُنُ هُوَ، لِكَوْنِهِ: أُذُن خَيْرٍ لَكُمْ، وَلَيْسَ بِأُذُنٍ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَسْمَعُ الْخَيْرَ وَلَا يَسْمَعُ الشَّرَّ[1].

وفي (الجلالين): هُوَ {أُذُن} مُسْتَمِع {خَيْر لَكُمْ} لَا مُسْتَمِع شَرّ (يُؤْمِن بِاَللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)[2].

التحليل اللغوي لما ورد من أقوال عند اللغويين والمفسرين في "هو أذن خير لكم":

أ- التركيب (هو أذن) مستعمل عند العرب قديما، ولذا يكتسب قوته من استعماله عندهم، وهو وصف للرجل وللمرأة أيضا، فقد أورده الخليل والأزهري والجوهري وغيرهم. ودلالته ذم وطعن ولمز لمن يوصف به؛ لأنه انتقاص من قدرات الإنسان على التمييز والفهم وإعمال العقل. ولذلك كانوا يؤذون النبي به كما ذكر القرآن.

ب- قام القرآن بتحويل التركيب من أذى وذم إلى مسار آخر بإضافة "أذن" إلى "خير"، ثم وجَّه الخير "لكم" لصالحكم لا لغيركم. فتحول التركيب بتخصيص الأذن للخير، وبجعل الخير يتوجه لهم. وكأنه يقابل بين ما يفعله لهم من خير وما يصيبه من أذى من أقوالهم مما يستوجب عقوبتهم " وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

التركيب تحول من :

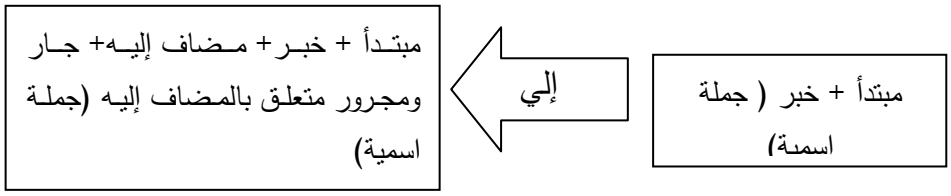

القرآن احتفظ بنوع الجملة، وهي جملة اسمية، واحتفظ بالمبتدأ "هو" لكنه مقدر يرجع إلى ما يرجع إليه "هو" وهو الرسول ﷺ، فالمبتدأ المحذوف رابط قوي بالجملة "هو أذن" ، حيث إن المبتدأ واحد فيهما أو مرجعيته واحدة، وهو منالارتباط الدلالي أو

(١) الشوكاني- فتح القدير ٤٢٨/٢. وانظر ابن عجيبة-البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ٣٩٨/٢. وانظر البيضاوي-أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٨٦/٣.

(٢) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (٨٦٤هـ) وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) تفسير الجلالين- دار الحديث- القاهرة- ط ١. ص٢٥١.

الالتحام Coherence، واحتفظ بالخبر "أذن"، وهو من عناصر السبك أو الارتباط النحوي الظاهري. وكذلك الارتباط المعجمي.

ونحلل الجملة التي رد بها القرآن وحوَّل بها المعنى هكذا:

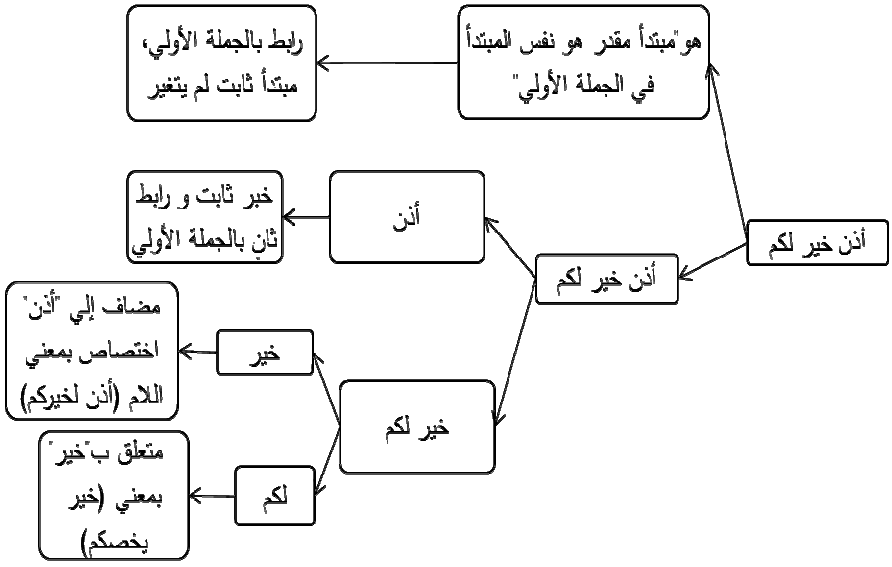

ج- بناء القرآن على كلام هؤلاء الذين آذوا النبي صلى الله عليه وسلم يعني لغويا الآتي:

- رابطة لغوية واضحة وقوية بالجملة الأولى بما يعني قوة السبك Cohesion.
- هدم البناء الأول "هو أذن"، فالبناء الجديد "أذن خير لكم" صحح انحرافهم بصورة النبي وأكمل الصورة الحقيقية للنبي.
- وقد أشار علماء البلاغة وعلماء أصول الفقه إلى (أذن خير لكم)، إلى أنه "من البديع المعنوي ما يسمى القول بالموجب، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع، ومن أحسنه قوله تعالى: وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ"[1].

(١) بهاء الدين السبكي أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، (٧٧٣ هـ) ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح –المحقق د. عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية، بيروت – ط١، ١٤٢٣ هـ ٢٧٨/٢،.

وفي "أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ" من أنواع البديع المعنوي، حيث أخذ الصفة التي أثبتوها في كلامهم فأثبتها لغير ذلك الشيء، فأصبح أذن خير أو مستمع خير، وهو ما أطلق عليه بعض علماء أصول الفقه "القول بالموجِب" فهو من أوجه الاعتراض على الاستدلال، وهو ما يوضحه الشوكاني في كتابه "إرشاد الفحول": الْقَوْلُ بِالْمُوجَبِ بِفَتْحِ الْجِيمِ، أَيِ: الْقَوْلُ بِمَا أَوْجَبَهُ دَلِيلُ الْمُسْتَدِلِّ..وَحَدُّهُ: تَسْلِيمُ مَا جَعَلَهُ الْمُسْتَدِلُّ مُوجَبَ الْعِلَّةِ، مَعَ اسْتِبْقَاءِ الْخِلَافِ. وذكر عن الزَّرْكَشِيُّ أنه قال فِي "الْبَحْرِ": وَذَلِكَ بِأَنْ يَظُنَّ الْمُعَلِّلُ أَنَّ مَا أَتَى بِهِ مُسْتَلْزَمٌ لِمَطْلُوبِهِ، مِنْ حُكْمِ الْمَسْأَلَةِ الْمُتَنَازَعِ فِيهَا، مَعَ كَوْنِهِ غَيْرَ مُسْتَلْزَمٍ(١).

فكلام الأصوليين أن القرآن بنى على ما قالوا، أو استعمل قولهم وهو أنه "أذن"، ولكنه أذن خير لكم، فبدا موافقًا لهم ثم بيَّن انحرافهم، وبالتالي أصبح ذم النبي مدحًا. وهو ما عده علماء البلاغة من البديع المعنوي، لأن القرآن استعمل مدلول الخصم مع وجود الخلاف في الحكم.

- لا حرج من استعمال كلام الخصم للوصول إلى الهدف، ففي هذا إظهار الثقة العظيمة في أنك بالغُ الهدف الموثوق في صحته. فالانطلاق من أرضية مشتركة لا يعني الاتفاق مع الخصم، فنمو خطوات الاستدلال تبعدنا عنهم. فالقرآن في استعماله كلامهم أعلمهم أنه يصل إلى كل ما يقولون، وفي هذا تخويف لهم من خلجات نفوسهم التي يعلمها الله ، ثم في خطوة أولى وهي "خير" ابتعد عن قولهم، ثم في خطوة ثانية وهي "لكم" أصبح مدلول التركيب خيرا خالصًا لصالح النبي ﷺ.

وإذا استشرنا أهل البلاغة والبيان في هذا نجد أمرين أحدهما: «هو أذن» مجاز مرسل كما يراد بالعين الرجل إذا كان ربيئة؛ لأن العين هي المقصودة منه فصار كأنه عين كله، وهو من إطلاق اسم الجزء على الكل للمبالغة والعلاقة تسمى الجزئية(٢).

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي بن عبد الله اليمني (١٢٥٠هـ) – إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول– تح: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي– دمشق – ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م– ١٥٦/٢.

(٢) محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (١٤٠٣هـ)– إعراب القرآن وبيانه – دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، ط٤ ، ١٤١٥ هـ.٤/ ١٢٣.

ففي التركيب "هو أذن" مجاز مرسل علاقته الجزئية والهدف هو المبالغة في الوصف، والآخر: في قوله "أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ" عند علماء البلاغة من أنواع البديع المعنوي ، وهو عند بعض علماء أصول الفقه "القول بالموجِب" فهو من أوجه الاعتراض على الاستدلال.

د- في إطار الاستبدال أو العلاقات الرأسية Paradigmatic relations التي تقارن بين ما استعمله التركيب من مفردات وما غاب عنه، يمكن المقارنة بين التركيب المستعمل والتركيب الغائب ، وبما أن التراكيب التي نبحثها تستعمل الدلالات الحسية للتعبير عن الأفكار المجردة ، فالتركيب " هو أذن " تراثي مستعمل عند العرب: تم التحول من المعنى المجرد "إنه مستمع فحسب" إلى "أنه أذن" مما يعني أنه الشخصية المنقادة لأي شيء يسمعه، فكأنه أصبح آلة السماع أو جارحة السماع أو أذنًا كما ذكر الشوكاني نقلا عن كلام الجوهري في صحاح العربية. ثم تم التحول من "هو أذن" إلى "أذن خير لكم".

التركيب المتروك	التركيب المستعمل
هو مستمع فحسب	هو أذن
يدل على فكرة مجردة(مجال تجريدي)	معناه مادي يدرك بالحواس (البصر)(مجال حسي)
الاستماع من معانيه الفهم فيؤدي إلى الرفض أو الاستجابة(اتساع)	الأذن آلة أو وسيلة وظيفتها السمع فقط (محدودة)
الاستماع دليل وجود الأذن	الأذن ليست وسيلة للفهم والعقل (تضييق)
تعبير عن الحقيقة	نفي وجود الحواس الأخرى (انتقاص من قدرات الإنسان)
جزء من وظائف الإنسان بعامة	يمثل كل وظائف هذا الإنسان بخاصة (وبالتالي تجميد الوظائف الأخرى)
وظيفة طبيعية لا آلية فيها.	أصبح الإنسان آلة تحميل أو استماع فقط.
النتيجة :لا ذم ولا لمز لمن يوصف به	النتيجة: ذم ولمز لمن يتصف به

بالنظر إلى هذا الجدول الذي يقارن بين التركيبين يمكن استخلاص ما يلي:

إن استعمال " هو أذن" بدلا من "هو مستمع فحسب" يُكسِب المعنى:

الإدراك بحاسة البصر لشكل الأذن المفتوحة دائما + التحديد للوظيفة الآلية للأذن+ التضييق للمعنى+ الانتقاص من القدرات + تجميد الوظائف الأخرى للإنسان.

كل هذه المكونات الدلالية يتحول فيها المعنى الحسي المُدرَك بالعين إلى مشاعر وأحاسيس يدركها القلب، فيحولها إلى معنى عقلي تجريدي، هو إرادة ذم هذا الشخص واللمز له وإيذائه نفسيا والتقليل من قدره.

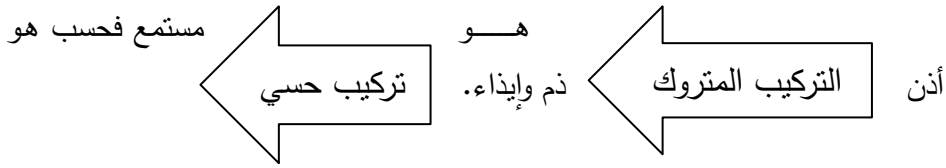

هو أذن خير لكم (دلالة حسية) ⟵ مجال الخير ومدح وثناء عليه.

وفي التمهيد لهذا البحث عرفنا أن الفلاسفة وعلماء النفس اجتمعوا على أن الصور الموجودة في خيالنا وعقولنا منتزعة من المحسوسات أو العالم الخارجي، فنفوسنا ممتلئة بالصور التي جردناها من مشاهداتنا وتركت فينا الخبرات والتجارب المؤثرة فينا، فصورة الأذن هي المعقول الذي جرده العقل، فعند ذم شخص بأنه "أذن" نجرد من صورته مثالا ل"آلة" لا إنسانية فيها ولا شخصية، فتتحول إلى معنى مجرد من ذم هذا الشخص.

ويبدو أن المجتمع العربي قديما استعمل "هو أذن" لهذا النمط من الشخصيات، ولذا ذكر الخليل أنه وصف به الرجل والمرأة، وقيل: هي أذن. واستعمل القرآن الدلالة الحسية أيضا للأذن، فدافع عن النبي بنفس سلاحهم، ولكن بمهارة "القول بالموجب" حولها في الخير. ولتحليل "أذن خير لكم" لابد من استحضار بعض عناصر السياق الخارجي، مثل: مَن القائل؟ لأن شكل التركيب يختلف من قائل مؤذٍ مُغرِض إلى قائل محب مُحِقّ، فقول الحبيب حبيب.

ثانيًا: ثني الصدور

ورد في القرآن استعمال فريد لكلمة "ثني"، وهو قوله تعالى "أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"(١) قبل أن نحلل هذا التركيب القرآني (يثنون صدورهم) الذي لم يرد إلا مرة واحدة، نذكر التراكيب القرآنية التي وردت فيها أفعال (الصدر) أو صفات (الصدر) أو (الصدور) في القرآن، لنضع هذا الفعل بين مجموعته، وهي كما يلي، قال تعالى:

"وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ"(٢).

"فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ"(٣).

" وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ"(٤).

"وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ "(٥).

" فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ"(٦). وقوله تعالى "يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ "(٧). وقوله تعالى "وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ"(٨) وقوله تعالى "حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ "(٩) .

وقوله تعالى"وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ"(١٠)

---

(١) سورة هود آية ٥.

(٢) (١٠٦)سورة النحل.

(٣) (٢)الأعراف.

(٤) (١٢)هود.

(٥) (٩٧)الحجر .

(٦) (١٢٥)الأنعام.

(٧) (١٩)غافر.

(٨) (١٠) العاديات.

(٩) (٩٠)النساء.

(١٠) (٧٤)النمل

استعمل القرآن التراكيب الآتية: شرح صدرا – في صدرك حرج – ضائق ويضيق صدرك– صدره ضيقا حرجا – ما تخفي الصدور– حُصل ما في الصدور– حصرت صدورهم – تُكن صدورهم.

هذه التراكيب التي وردت للأفعال أو الصفات التي تأتي مع الصدر أو الصدور، وهي في إطار معنى اتساع الصدر وانبساطه للإيمان أو الكفر، أو ضيق الصدر وانقباضه فلا يسمح للإيمان بأن يدخله أو أن يقبله كأنه من صعوبة ذلك يتصعد في السماء، أو ما تُكنُّه الصدور فيتم جمعه يوم البعث، فالصدور هي الوعاء الذي يُخفون فيه ما يريدون ألَّا يطلع عليه المؤمنون.

نعود إذن إلى التركيب القرآني (يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) ننظر في أقوال اللغويين والمفسرين:

من ذلك ما ذكر الأزهري قال: "وأصله من: ثنيت الشيء، إذا حنيته وعطفته وطويته. واثنونى صدره على البغضاء، أي انحنى وانطوى. وكل شيء عطفته، فقد ثنيته. ونقل عن الفراء في قول الله عز وجل: (ألا إنهم يثنون صدورهم). قال الفراء: نزلت في بعض من جاء يلقى النبي ﷺ بما يحب وينطوي له على العداوة والبغض، فذلك هو الثني: الإخفاء."[1]

وذكر ابن سيده أن "ثَنَى الشَّيْءَ ثَنْيًا رَدَّ بعضَه على بَعْضٍ وقد تَثَنَّى وانْثَنَى .. وثِنْيُ الحَيَّةِ انْثِناؤُها وهُو أَيْضًا ما تَعَوَّجَ مِنها إِذا تَثَنَّتْ[2]. وذكر آخر: ثنى الشيء يثنيه ثنيا: من باب رمى – طواه ورد بعضه بعض ، ويقال: ثني فلان عطفه أي تكبر وأعرض كأنه لوي أحد عطفيه أي جانبيه وثناه إلي الآخر.يثنون.. أي يطوون ما فيها ويسترونه[3].

---

(١) الأزهري –تهذيب اللغة–مادة ث ن ي.

(٢) ابن سيده–المحكم والمحيط الأعظم–مادة ث ن ي. وانظر الفيروزآبادى– القاموس المحيط–مادة ث ن ي.

(٣) حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل ، مخطوطة الجمل – معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن –الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر– ط١، ٢٠٠٨ م.٢٨٨/١.

أما أقوال المفسرين في هذا فهناك من فسر الأمر على حقيقته قَالَ مجاهد: «كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ثَنَى صَدْرَهُ وَرَفَعَ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِهِ لِكَيْلَا يَسْمَعَ الْقُرْآنَ وَالذِّكْرَ»(١).

وقال مقاتل : أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يعني يلوون، وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن نكسوا رءوسهم على صدورهم كراهية استماع القرآن لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ يعني من النبي ﷺ فالله قد علم ذلك منهم(٢). وفسره آخرون بأنه إخفاء وستر بضم طرفي الصدر، فقد ذكر الماتريدي: يكتمون ما في صدورهم ويستترون؛ وهو قول ابن عَبَّاسٍ. وأصل تثنية الصدور هو أن يضم أحد طرفي الصدر إلى الطرف الآخر ليكون ما أضمروا أستر وأخفى(٣).

وأضاف الماتريدي أنه يشبه ما ذكر من ثني الصدور أن يكون كناية عن ضيق الصدور؛ كقوله: (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا)، أو عبارة عن الكبر؛ كقوله: (ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. . .) الآية، وكان أصله الميل إلى غيره، وهو ما قال أَبُو عَوْسَجَةَ: (يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) أي: يميلون إلى غيره(٤). وذكر ابن عجيبة: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يلوونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ أو يولون ظهورهم إلى النبي لئلا يروه من شدة البغض والعداوة، لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...قالوا: إن أرخينا ستورنا، واستغشينا ثيابنا، وطوينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ كيف يعلم ذلك؟(٥) .

إن الذي ينظر إلى مكونات الموقف الذي تعبر عنه الآية يجد ما يلي:

يثنون صدورهم ⟵ إنه فعل المنافقين.

الصدور ⟵ إما أن تكون حقيقية أو معنوية بمعنى النفوس.

---

(١) مجاهد (١٠٤هـ) تفسير مجاهد-تح: محمد عبد السلام أبو النيل، مصر- ط١، ١٤١٠ هـ. ص ٣٨٤.

(٢) أبو الحسن مقاتل بن سليمان(١٥٠هـ)- تفسير مقاتل بن سليمان .٢٧١/٢.

(٣) أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) - تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)-٩٧/٦.

(٤) أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) - تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)-٩٧/٦.

(٥) ابن عجيبة ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- ٢٢١/٥.

الشيء المَطوِي في عملية الثني ⟵ العداوة للنبي ﷺ .

وليس هناك خلاف في أن المطوي هو العداوة والبغضاء، إذن "يثنون صدورهم" على العداوة، فالمعنى المراد التعبير عنه تجريدي، وتحول إلى حسي بهذا التركيب.

ف "ثني الصدور" لا تعني حركة عضوية حقيقية، فهي تعني طي صدورهم على عداوة النبي ﷺ

فلا ينكشف أمرهم، فهؤلاء من المنافقين لما طووا ما في صدورهم ، وكذلك طي الصدر على العداوة يعني أن الأمر كله نفسي تجريدي.

ويؤيد هذا تأكيد القرآن على أن الله عليم بذات الصدور ، فقد ورد هذا التركيب"الله عليم بذات الصدور" اثنتي عشرة مرة، ومنه قوله تعالى" قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"(١).

وقد ذكر ابن عاشور أن الصُّدُورُ مُرَادٌ بِهَا النُّفُوسُ فالْعَرَبَ يُعَبِّرُونَ عَنِ الْحَوَاسِّ الْبَاطِنِيَّةِ بِالصَّدْرِ (٢).

وللمقارنة بين التركيب المباشر " يُضمرون عداوتهم" وتركيب القرآن "يثنون صدورهم" يمكن تحليلهما في الجدول التالي:

يضمرون عداوتهم(المتروك)	يثنون صدورهم
الإضمار أو الاستتار معنى تجريدي	الثني للصدر معنى حسي يدرك بحاسة البصر
العداوة معنى تجريدي	العداوة تحولت إلى مادة يمكن طيها داخل الصدور.
صورة في الذهن فقط تعبر عن حقيقة.	صورة حسية لها أثر نفسي كريه.
لا تشغلهم مشكلة الإخفاء للعداوة	شغلتهم المشكلة فبحثوا عن وسيلة.
معنى غير محدد الوسيلة	وسيلة الإخفاء محددة هي الثني أو الطي."ضيق"

(١) (١١٩)آل عمران.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر (١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير– تونس– ١٩٨٤ هـ. ٣٢٣/١١.

إضمار المعاني السلبية يبدو طبيعيا في الإنسان.	حريصون على عدم الكشف عن العداوة."قلق نفسي"
العداء يدخل مع عناصر كثيرة يحرص الواحد منهم على إخفائها.	الإخفاء نال اهتماما خاصا وأخذ تركيزهم.
لا يوضح التركيبُ الأثرَ النفسي.	يصور الضغط النفسي المبذول في الإخفاء.
يظل معناه ضمن المعاني التجريدية الموجودة في أذهاننا.	يتحول معنى التركيب إلى صورة جديدة تجريدية تنطبع في النفس.

التحليل اللغوي للتركيب "يثنون صدورهم" :

أ- تم نقل المعنى التجريدي إلى صورة تُدرك بإحدى الحواس ، وهذا جعل المعنى المجرد محسوسا محددا في صورة واقعية تعكس ما يحدث بداخلهم، إنه عليم بذات الصدور.

ب- بيان الأثر النفسي لثني الصدر أو طيه ، وما ينتج عنه من ضيق الصدر وضغطه.

ج- المجهود المبذول في الانحراف عن الطبيعة يجعل السامع ينفر من صورة مُخفي العداء.

د- حدث تحول من المعنى التجريدي إلى المعنى الحسي ، ثم حدث تحول آخر من الصورة الحسية الكلية إلى صورة في العقل مجردة من الصورة الحسية ، وأثر هذه الصورة كراهية هذا التصرف الذي أوجب تهديدهم بأن الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.

فالوقوف عند التركيب الذي يعبر عن الحقيقة وهو "يضمرون العداء" لم يكن ليصل بنا إلى المعنى العقلي الذي يعيش في نفوسنا ، ويصور مدى معاناتهم النفسية في هذا ، فلو حاول الإنسان أن يثني صدره لشعر بألم ومشقة لأنه ضد حركات جسم الإنسان الطبيعية التي خلقه الله عليها.

ثالثاً: مساكن الذين ظلموا

ورد في القرآن تركيب فريد هو "وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا" في قوله تعالى "وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) "[1] .

تكلم القرآن عن صفات (المساكن) التي سكنها الناس، والصفات للناس وليست للمساكن، وهذه هي التراكيب القرآنية التي وردت فيها صفات (المساكن).

١- قال تعالى "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (٢٤) سورة التوبة.

٢- وقوله تعالى "وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) التوبة.

٣- وفي قوله تعالى "يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "(١٢) الصف.

٤- وفي قوله تعالى "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ "(١٥) سبأ.

٥- وفي قوله تعالى "وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ "(١٣) الأنبياء.

٦- وفي قوله تعالى "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ "(١٨) النمل.

---

(١) سورة إبراهيم.

٧- وفي قوله تعالى "أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى "(١٢٨) طه.

٨- وفي قوله تعالى "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ" (٥٨) القصص.

٩- وفي قوله تعالى "وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" (٣٨) العنكبوت.

١٠- وفي قوله تعالى "أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ" (٢٦) السجدة.

١١- وفي قوله تعالى "فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ" (٢٥) الأحقاف.

الآية القرآنية	في الدنيا	في الآخرة	الوصف	المضاف إليه	دلالتها في السياق
وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ (التوبة)	√	×	ترضونها "مساكن مَرْضِيَّة منهم	×	مساكن مرفوضة رغم أنها مَرضِيَّة منهم لأن الله ورسوله ينبغي أن يكون أحب إليهم منها.
وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ (التوبة)	×	√	طيبة	×	ثواب
وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ(الصف)	×	√	طيبة	×	ثواب
لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ	√	×	×	الضمير "هم"	عقاب
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ	√	×	×	الضمير "هم"	خراب
وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ	√	×	×	الضمير "كم"	إذلال وعقاب
يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ	√	×	×	الضمير "كم"	المساكن هنا تمثل الأمن.
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا	√	×	×	الضمير "هم"	عقاب وبقاؤها عبرة
وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ	√	×	×	الضمير "هم"	عقاب
يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ	√	×	×	الضمير "هم"	عقاب
فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ	√	×	×	الضمير "هم"	عبرة

الذي ينظر في التراكيب التي ورد فيها لفظ (مساكن) من خلال الجدول السابق يلاحظ الآتي:

أولاً: كل المساكن المذكورة كانت في الدنيا ولم تكن موضع إشادة، ولم تُمدَح إلا مساكن الآخرة في جنات عدن، التي قال القرآن عنها "مساكن طيبة".

وعندما وُصفت المساكن في التركيب الوحيد بأنها "مَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا" كانت في سياق حث المؤمنين على تفضيل حب الله ورسوله على حب زينة الحياة الدنيا. في قوله "وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤)" سورة التوبة.

ويفسر أبو السعود الآية بأن {ومساكن تَرْضَوْنَهَا} أي منازلُ تعجبكم الإقامةُ فيها من الدور والبساتينِ والتعرُّضُ للصفات المذكورة للإيذان بأن اللومَ على محبة ما ذكر من زينة الحياةِ الدنيا ليس لتناسي ما فيها من مبادئ المحبة وموجباتِ الرغبة فيها، وأنها مع ما لها من فنون المحاسنِ بمعزل عن أن يُؤثَرَ حبُّها على حبه تعالى وحبِّ رسوله ﷺ [(١)]. فالقرآن يقول كل من يرغب في مثل هذا ويحبه "مساكن تعجبون بها مثلا" فإن صاحبه يفضل البحث عن زينة الحياة مثل المساكن التي تعجبه وترضيه ، ولا يبحث عن حب الله ورسوله.

ثانياً: حرص القرآن على إضافة "مساكن" أو "مَسْكَن إلى الضمير :هم " أو "كم" (مساكنهم – مساكنكم – مسكنهم)، ليحتفظ بالحجة والدليل عليهم، فالمساكن يمتلكونها أو أضيفت إليهم في مثل قوله تعالى "لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ".

فيمكن القول بأن القرآن يحتفظ ب"المساكن، بوصفها الدليل الذي لا يُمحى، إنها موطن الجرائم التي ارتكبوها. فلم يعامل القرآن المساكن مثل الأموال "وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ

(١) أبو السعود العمادي(٩٨٢هـ) تفسير أبي السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،٤/٥٥.

مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ" فالمساكن لابد أنهم تاركوها ، ولكنها الدليل الذي لا يمكن أن ينكروه، إنها منسوبة إليهم.

ثالثا: القرآن جعل المساكن عبرة وعظة للأمم التالية، قال تعالى "وعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ" وقوله تعالى "كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ".

رابعا : التهوين من قيمة مساكن الدنيا أيا كانت يظهر تسوية القرآن بين مساكن الإنسان في الدنيا ومساكن غيره مثل النمل ، قال تعالى " يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ" النمل ١٨.

بعد دراسة التراكيب التي وردت فيها "مساكن" في القرآن نعود إلى التركيب الفريد "وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ".

أولاً: القرآن يذكر أن هؤلاء من الظالمين، لأنهم سكنوا في مساكن الظالمين. ماذا يفيد هذا التركيب وما الفارق بينه وبين القول: كنتم من الظالمين. "وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ(٤٥)" سورة إبراهيم.

ونوضح هذا بالجدول الآتي:

كنتم من الظالمين (التركيب المتروك)	التركيب القرآني"وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ"
تقرير حقيقة انتمائهم	تصوير الوضع الاجتماعي والنفسي لهؤلاء
لا يهتم بتحديد وضعهم في الدنيا	السكن والاستقرار والإقامة في هذه الأماكن.
لا يُظهر التركيب إصرارهم على موقفهم مع ما هو معروف عن عنادهم.	بيان إصرارهم على موقفهم وتعمدهم من خلال تمسكهم بوضعهم كتمسكهم بمساكنهم"أقسمتم"
لا ذكر لتاريخ الظالمين هنا	عرفوا ما حدث للأمم السابقة لأنهم احتلوا مكانهم
لا عظة ولا عبرة	لم يتعظوا ويعتبروا من نهايتهم
مثلهم مثل غيرهم في فريق الظالمين	هم الذين صنعوا ذلك بأنفسهم
يستحقون العقاب	يستوجب إصرارهم العقاب وزيادة
ليس هناك أثر نفسي للتركيب.	يتولد لدى السامع قسوة عليهم فلا شفقة ولا عطف عليهم فقد استقروا على هذا الوضع وأصروا عليه رغم معرفتهم بالمصير.
لم يُضف جديدا فالناس جماعتان مؤمنة وظالمة لنفسها.	تكوين صورة جديدة لهذا الحي من مساكن الظالمين، ويجرد العقل صورة تجريدية نفسية تظل قائمة.
تقرير لحالهم أنهم ضمن هؤلاء.	لابد بناء على تلك الصورة أن تحدد مع أي المعسكرين تكون في "مساكن الظالمين: أو "مساكن المؤمنين" وأن تلزم معسكرك، لأنك مقيم فيه.

إذن يختلف التركيبان "كنتم من الظالمين" و"سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم" بين الحقيقة المجردة وتصوير وضعهم الاجتماعي حيث كانوا في معسكر الكفر، وسكنوا مساكنهم واستقروا فيها، وطلبوا زينة الحياة الدنيا وأصروا عليها ، فهذه صورة بصرية محسوسة ، ولها أثر نفسي حيث عاشوا عيشة الظالمين وهم مدركون لذلك ، لأنهم عرفوا سيرة سابقيهم وما نالهم من عقوبة.

ولكن ما الدليل على أن هذا التركيب "سكنتم في مساكن الذين ظلموا" هو تصوير للمعنى المجرد، وليس على حقيقته؟

أولاً: ما نراه في واقع الحياة من عدم وجود قسمين واضحين مساكن للظالمين وأخرى للمؤمنين، فمثل هذه الأمور تخفى على الناس إلا بتجربة الأشخاص ، ومحاولة تمييز الصالح من الطالح.

ثانياً: جزم القرآن بأن الظالمين قد هلكوا ، ولا نرى إلا آثارهم لنستدل عليهم. قوله تعالى" كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ". ذكر ابن عاشور في تفسير ذلك أن العرب كانوا: "يَمُرُّونَ بِمَسَاكِنِ عَادٍ فِي رَحَلَاتِهِمْ إِلَى الْيَمَنِ وَنَجْرَانَ وَمَا جَاوَرَهَا، وَبِمَسَاكِنِ ثَمُودَ فِي رَحَلَاتِهِمْ إِلَى الشَّامِ. وَقَدْ مَرَّ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ بِدِيَارِ ثَمُودَ فِي مَسِيرِهِمْ إِلَى تَبُوكَ"(١).

فهؤلاء الأقوام نزل بهم عقاب الله فأهلكهم ولم يتبق إلا مساكنهم بقيت عبرة، قال تعالى "فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ".

وفي قوله "فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا" ذكر ابن عجيبة لم يعرفوا قدر نعمتهم، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم، وخَرُّوا في وَهدة الطغيان على أذقانهم، فدمر الله عليهم وخرب ديارهم. فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ خاوية، أو: فتلك منازلهم باقية الآثار..لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا من السكنى..وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ لتلك المساكن من سكانها، أي: لا يملك التصرف فيها غيرنا(٢).

---

(١) ابن عاشور ،التحرير والتنوير ، ٣٣٥/١٦.

(٢) ابن عجيبة، البحر المديد، ٢٦٤/٤-٢٦٥.

ثالثاً: انتقال المكونات الدلالية للمسكن إلى موقف الظالمين، فكما أن الإنسان يختار مسكنه فإنهم اختاروا موضع الظالمين، وكما أن الإنسان يستقر في مسكنه، فقد استقروا على هذا الوضع، وكما أن الإنسان يصمم على مسكنه ويتمسك به فقد ظل هذا موقفهم رغم معرفتهم بما حدث من عقاب وتدمير لأصحاب هذه المواقف.

المكونات الدلالية للمسكن المختار= اختيار+ استقرار+ إصرار "الإقامة فيها" + معرفة عاقبة الذين سكنوا قبلهم "الهلاك".

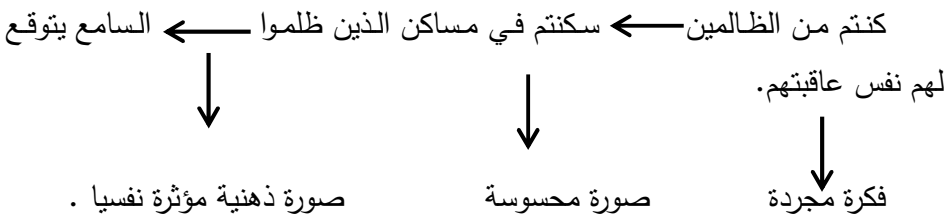

رابعاً: قدم صدق

استعمل القرآن كلمة : قدم" وجمعها "أُقدام" في تراكيب عديدة وبدلالات مختلفة.

منها ما يلي:

١- قوله تعالى: "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ" (٢) سورة يونس.

٢- "وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (٩٤) سورة النحل.

٣- "وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ" (١١) الأنفال.

٤- "يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ" (٤١) الرحمن.

٥- "قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" (٢٥٠) البقرة.

٦- "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ(٢٩)" سورة فصلت.

ولنذكر مجمل ما ورد في المعاجم العربية في معنى "القَدَم" كما يلي:

جاء في معجم "العين" أن "القَدَمُ: ما يطأ عليه الإنسان من لدن الرسغ فما فوقه.وقوله تعالى: لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، أي سبق لهم عند الله خير، وللكافرين قَدَمُ شر[1].

وفي جمهرة اللغة : والقَدَم: قَدَم الْإِنْسَان، وَالْجمع أَقْدَام. وَلفُلَان قَدَمُ صِدْقٍ، أَي أُثْرَة حَسَنَة[2].

وفي المعجم الوسيط (الْقدَم) مَا يطَأ الأَرْض من رجل الْإِنْسَان وفوقها السَّاق وَبَينهمَا الْمفصل الْمُسَمّى الرسغ ، والتقدم والسبق فِي الْخَيْر أَو الشَّرّ[3].

أما المفسرون فقد اجتهدوا في ذلك، ففي قوله تعالى (لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وردت أقوال كثيرة، منها:

قال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم. يقال: لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق، وقدم سوء، قال حسان بن ثابت:

لَنَا القَدَمُ العُلْيَا إِلَيْكَ وَحَلْفُنَا ... لأَوّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ[4]

وقال ذو الرمّة:

لهمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ الناسُ أنها ... مع الحَسَبِ العاديِّ طَمَّتْ على البحر[5]

---

(١) الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، مادة ق د م.

(٢) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (٣٢١هـ)- جمهرة اللغة -مادة ق د م.

(٣) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة ق د م.

(٤) تخريج البيت في تحقيق أحمد شاكر لتفسير الطبري، ديوان حسان بن ثابت : ٢٥٤، وسيرة ابن هشام ٣: ٢٨٣ .من قصيدة بكى فيها سعد بن معاذ، في يوم بنى قريظة ورجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشهداء. وفي روايته قوله: ((القدم الأولى)) ، يعنى سابقة الأنصار في الإسلام.انظر هامش تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٩.البيت من الطويل.

(٥) الثعلبي أبو إسحاق – الكشف والبيان عن تفسير القرآن- ١١٨/٥. وتخريج هذا البيت نقلا عن تحقيق تفسير الطبري ، ديوانه ٢٧٢، من قصيدته في مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، ورواية ديوانه: " طمت على الفخر " انظر تحقيق أحمد محمد شاكر لتفسير الطبري.هامش ١٦/١٥. والبيت من الطويل.

وذكر الطبري أن بَعْضُهُمْ قال مَعْنَاهُ: أَنَّ لَهُمُ أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ(١).

وذكر عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ: " {قَدَمَ صِدْقٍ} ثَوَابَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ(٢)

وذكر أن ذلك محكيٌّ عن العرب: "هؤلاء أَهْلُ القَدَم في الإسلام" أي هؤلاء الذين قدَّموا فيه خيرًا، فكان لهم فيه تقديم. ويقال: "له عندي قدم صِدْق، وقدم سوء"، وذلك ما قدَّم إليه من خير أو شر(٣). وذكر الزجاج أن "وَالقَدَم الصِّدْق: المنزلة الرفيعة"(٤).

وذكر الزمخشري: قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة. فإن قلت: لم سميت السابقة قدما؟ قلت: لما كان السعى والسبق بالقدم، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما، كما سميت النعمة يدًا لأنها تعطى باليد.فقيل: لفلان قدم في الخير. وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة(٥).

إذن من كلام المعجميين والمفسرين في تفسير (قدم صدق)، يمكن استخلاص ما يلي:

أولاً: العرب قديماً استعملوا (القدم) استعمالات مجازية كثيرة، مثل (قدم صدق) أو (قدم سوء) أو (اتخذ قدما) و(لهم قدم لا ينكر) و(لهم قدم معروفة).

ثانياً: إن وظيفة القدم المشي والسعي والثبات للجسم، فكل سعي أو سبق في الخير أو الشر، قدم. ولذا فالسعي في الخير يؤدي إلى المنزلة الرفيعة أو لهم ثواب أو فضل أو أجر حسن. وعكسه السعي في الشر.

ثالثاً: وضع (القدم) في أدنى أعضاء الجسم، جعل لها دلالة أخرى غير وظيفتها، وهي في اتجاهين، إما دنو المكانة و الذل والتحقير والمقام المتدني أو القرب والتمكن

(١) الطبري – تفسير الطبري ١٠٧/١٢.
(٢) الطبري، تفسير الطبري،١٠٩/١٢.
(٣) السابق ،١٦/١٥.
(٤) الزجاج أبو إسحاق – معاني القرآن وإعرابه–٦/٣.
(٥) الزمخشري جار الله – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل–٣٢٨/٢.

من الشيء والتثبيت، وكلٌّ حسب السياق.وأمثلته كثيرة، فقد ذكر الزمخشري (اجعل ذلك تحت قدميك أي اعف عنه)[١].

وقول أبي بكر الصديق للنبي ﷺ في حادثة الهجرة وهما في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه[٢].

وقول النبي ﷺ: وَالتَّحُوتُ: "الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ"[٣]. وذكر أبو بكر الصولي عن نهاية الدولة العباسية "ليجدوا رءوسهم تحت أقدام معز الدولة البويهى"[٤].

رابعاً: المعنى الحقيقي ل(لهم قدم صدق) أنهم (تقدموا بصالح الأعمال) أو (حازوا منزلة رفيعة). ولكن الأثر الذي يعطيه التركيب (لهم قدم صدق) من دلالة قوة الثبات بوضع القدم الذي لا يستطيع أحد زحزحته عن هذا الموضع. هذا المعنى الذي تدركه حاسة البصر "قدم صدق"، فضلاً عن أن تصور معنى (الصدق) الذي له (قدم)، فهو تجسيد لمعنى الصدق وثباته بهذه القدم، ولا يمكن لتعبير آخر أن يُمكِّن المعنى في النفس مثله.

ويمكن المقارنة بين التركيبين في الجدول التالي :

حازوا المنزلة الرفيعة (التركيب المتروك)	لهم قدم صدق (التركيب القرآني)
معنى تجريدي يدركه العقل	معنى حسي يدركه البصر"قدم"
تقرير حقيقة منزلتهم	مكانة قوية ثابتة لا تتزحزح"قدم"
متميزون لكن قد يشاركهم غيرهم فيها	لهم السبق والتقدم على غيرهم "قدم"

(١) الزمخشري، أساس البلاغة ، مادة ق د م.

(٢) أحمد بن حنبل أبو عبد الله – مسند الإمام أحمد بن حنبل–١/١٧١.

(٣) ابن حبان(٣٥٤هـ) – الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان – ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (٧٣٩ هـ)حققه: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت– ط١/ ١٩٨٨ م.١٥/٢٥٨.

(٤) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (٣٣٥هـ) – الأوراق قسم أخبار الشعراء، القاهرة ١٤٢٥ هـ. ١/ ١٩.

تقرير مباشر عن حيازة هؤلاء مكانة راقية.	تكوين صورة جديدة صورة ذهنية للقدم "قدم معنوية من الصدق"حسي+ تجريدي"
المعنى لا ينتقل من العقل.	المعنى ينتقل من الحس إلى العقل.
ليس له أثر نفسي	يتولد أثر نفسي يميزهم ويرفعهم ويغبطهم غيرهم.

أما التراكيب القرآنية الأخرى التي ذكرناها ، فيمكن تحليلها من خلال تحليل (لهم قدم صدق) في قوله تعالى "وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا"

ذكر تفسير الطبري أن: ولا تتخذوا أيمانكم بينكم دَخَلا وخديعة بينكم، (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) يقول: فتهلكوا بعد أن كنتم من الهلاك آمنين(١).

فالمقارنة بين التركيبين: "تزل قدم بعد ثبوتها" و"تهلكوا بعد أن كنتم آمنين".

فصورة الشخص الذي تزل قدمه تدركها حاسة البصر وتترك أثرًا نفسيا هو الندم على أنه لم يحافظ على حالة الثبوت والأمان التي كان عليها.

أما التراكيب: "يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" و"وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ" و"وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ". ففي تفسيرها توجهات عديدة:

ففي التحرير والتنوير: وَتَثْبِيتُ الْأَقْدَامِ: تَمْثِيلٌ لِلْيَقِينِ وَعَدَمِ الْوَهَنِ بِحَالَةِ مَنْ ثَبَتَتْ قَدَمُهُ فِي الْأَرْضِ فَلَمْ يَزَلْ، فَإِنَّ الزَّلَلَ وَهَنٌ يُسْقِطُ صَاحِبَهُ، وَلِذَلِكَ يُمَثَّلُ الِانْهِزَامُ وَالْخَيْبَةُ وَالْخَطَأُ بِزَلَلِ الْقَدَمِ قَالَ تَعَالَى: فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها(٢).

وفي أضواء البيان: وَثَبَّتَ أَقْدَامَهُمْ، أَيْ عَصَمَهُمْ مِنَ الْفِرَارِ وَالْهَزِيمَةِ(٣).

هذه التراكيب ربطت بين النصر وتثبيت الأقدام ، وكذلك الربط على القلوب وتثبيت الأقدام، فالقوة النفسية الداخلية تنعكس في ثبات القدم على الأرض مما يؤدي إلى النصر. وكأن القدم تمثل القوة إن ثبتت، وتمثل الضعف إن زلت واهتزت.

---

(١) الطبري ، تفسير الطبري ، ١٧/ ٢٨٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير،٢٦/٨٥.

(٣) محمد الأمين الجكني الشنقيطي (١٣٩٣هـ) – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن–٧/٢٥٠.

وتركيب قرآني آخر ذكرناه في الآيات السابقة ، وهو قوله تعالى "فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ". نقل الزمخشري عن الضحاك: يُجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره وقيل تسحبهم الملائكة: تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام[1].

فإذا كانت "النواصي" تمثل أعلى نقطة في الجسم فإن "الأقدام" أسفل نقطة، وبينهما العطف بالواو فكأنه يتم الجمع بين النواصي والأقدام، فكأن الجسم يطوى بالسلاسل إمعانًا في التعذيب والإهانة. أما التركيب القرآني الذي أوردناه ضمن الأمثلة السابقة فهو:

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ(٢٩)" سورة فصلت.

فالتركيب "نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ"

قال فيه ابن عاشور: وَالْجَعْلُ تَحْتَ الْأَقْدَامِ: الْوَطْءُ بِالْأَقْدَامِ وَالرَّفْسُ، أَيْ نَجْعَلُ آحَادَهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِ آحَادِ جَمَاعَتِنَا، فَإِنَّ الدَّهْمَاءَ أَكْثَرُ مِنَ الْقَادَةِ فَلَا يَعُوزُهُمُ الِانْتِقَامُ مِنْهُمْ. وَكَانَ الْوَطْءُ بِالْأَرْجُلِ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الِانْتِقَامِ وَالِامْتِهَانِ[2].

فوضع شخص تحت الأقدام التي هي أسفل جزء في الإنسان يكون أقصى درجات الإهانة والانتقام ، وقد وضحت الآية من كلامهم ما قصدوا إليه ،وهو "لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ".يعنى أحط درجة انتقام من المُضلين من الجن والإنس.

وهذا الجدول لرصد دلالة استعمال "القدم" في الآيات التي ذكرناها.

التركيب	الدلالة	الوظيفة	الموضع	مدح أو ذم
لَهُمْ قَدَم صِدْقٍ	سعي وسبق في الخير	السعي والسير	موضع خير	مدح
فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا	الوقوع في الخطأ	وسيلة اختلال	موضع شر	ذم
وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ	القوة واليقين	أداة الثبات	موضع النصر	مدح

(١) الزمخشري ، الكشاف، ٤٥١/٤.

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ٢٨٠/٢٤.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ	موضع أخذ الكافر	تنضم مع النواصي	أسفل جزء عضوي(مع أعلى جزء.)	ذم
نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ .	إهانة وانتقام	أسفل جزء عضوي	موضع الهزيمة والإهانة.	ذم

ويمكن بناء على تحليل التراكيب القرآنية أن نقول: إن القرآن عبر عن المعاني التجريدية بمخاطبته الحواس؛ لتتحول إلى صورة كلية جديدة لها معان تأثيرية نراها باقية في نفوسنا بعد كل صورة. ونستحضرها كلما قرأنا التركيب أو استمعنا إليه.

فكل تركيب قرآني لو قارناه بالتعبير التجريدي لاتضحت المزايا، فمثلا "نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ" والتعبير الآخر عن الفكرة يمكن أن يكون: ننتقم منهما ونذلهما. فالتعبير عن حقيقة الفكرة هو تقرير بالخبر يزودنا بالمعرفة دون أن يسيطر على الجوانب النفسية أو دون أن تنطبع منه صورة ذهنية جديدة نخزنها ضمن الصور المؤثرة التي نحتفظ بها.

ويمكن تمثيل دلالات (القدم) بالشكل التوضيحي التالي:

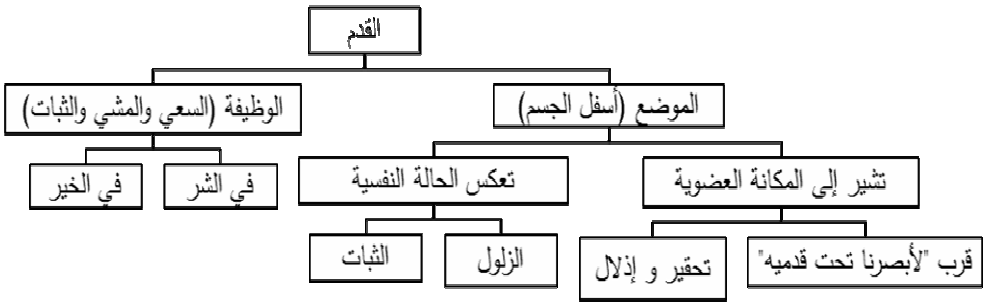

خامساً: رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

عبَّر القرآن عن تراكم الذنوب أو المعاصي بقوله "ران على قلوبهم" في الآية الكريمة:

"كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(١٥)" سورة المطففين.

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ(٤٦)" سورة الأنعام ، "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٥٩)" سورة الروم.

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ(٣)" سورة المنافقون.

بعد عرض هذه الآيات الكريمة لابد أن نحدد معنى "رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ"، وعلاقته ب"ختم على قلوبكم" و"طبع على قلوبهم" حيث وضح المفسرون هذه الآيات بعضها ببعض، ونحدد أيضا المعنى التجريدي والمعنى الحسي فيها.

فالتراكيب هي: ران على قلوبهم – ختم على قلوبكم – طبع على قلوبهم.

من أهم ما جاء في المعاجم في التركيب (ران على قلوبهم) ما يلي:

ذكر الخليل بن أحمد أن: الرَّيْنُ: الطَّبْع على القلب. رانَ يَرِينُ على قَلبه، أي: طُبع، وقوله جلّ وعزّ: بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ. قال الحَسَن: الذّنب على الذّنب حتّى يَسْوَدَّ القلب. وهذا من الغلبة عليه. ورِينَ بفلانٍ، أي: وقع فيما لا يَستطيعُ الخُرُوج منه(١).

ونقل الأزهري عن الفراء: قال: كثرت المعاصي منهم والذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. وجاء في الحديث أن عمر قال في أسيفع جهينة لما ركبه الدَّين: أصبح قد رين به. يقول: قد أحاط بماله الدَّين؛ وكذلك غلبة الذنوب. وروي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل عن هذه الآية: فقال: هو العبد يذنب الذنب فتتكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن عاد نكتت أخرى حتى يسود القلب، فذلك الرين. وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، وهو الختم. قال: والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على

(١) الخليل بن أحمد ، كتاب العين– مادة ر ي ن.

القلب. وقال الزجاج: يقال: ران على قلبه الذنب، إذ غشي على قلبه.قال: والرين، كالصدأ يغشى القلب[١].

ملاحظات على تحديد المعاجم لمعنى (ران) أو (الرَّين) :

١- أصل معنى (الرين) هو الصدأ، فقد ذكر ابن دريد أن "الرَّين أَصله الصَدَأ الَّذِي يركب السيفَ وغيرَه، ثمَّ صَار كل شَيْء غطّى شَيْئا فقد ران عَلَيْهِ"[٢]. وفي تاج العروس: (الرين: الطبع والدنس) ؛ وقال الراغب: صدأ يعلو الشيء الجلي؛ ومنه قوله تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم" ، أي صار ذلك كصدإ على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشر[٣]. والصدأ شيء محسوس بالعين، وهو يحدث تدريجيًّا، ولذا فقد جعلوا الذنب (الذي هو فكرة تجريدية) كالنكتة السوداء في القلب وبزيادة الذنوب يسود القلب كأنه صدئ.

٢- غلبة الذنوب وإحاطتها بالقلب فلا يستطيع الفكاك منها. ذكر أبوعبيد القاسم بن سلام قَوْله: فَأَصْبح قد رِينَ بِهِ، قَالَ أَبُو زيد يُقَال: قد رِينَ بِالرجلِ رَينا إِذا وَقع فِيمَا لَا يَسْتَطِيع الْخُرُوج مِنْهُ وَلَا قِبَل لَهُ بِهِ وَقَالَ القناني: رِيْنَ بِهِ: انْقَطع بِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذا أَتَاهُ مَا لَا قبل لَهُ بِهِ، فهو مُنْقَطع بِهِ، وَكَذَلِكَ كل مَا غلبك فقد ران بك وران عَلَيْك[٤]. وفي شمس العلوم :"رَانَ الذَّنْبُ على قلبه: أي غلب..، ورانت عليه الخمرُ: غلبته[٥].

٣- الرين دنس ووسخ وصدأ يفسد جلاء القلب. ذكر الجوهري أن :الرَّيْنُ: الطَبَعُ والدنس. وقال أبو عبيد:.. وران ورانَتْ نفسه تَرينُ رَيْناً، أي خَبُثَتْ وغَثَتْ[٦].

---

(١) الأزهري، تهذيب اللغة مادة ر ي ن.

(٢) ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة ر ي ن. وانظر ابن سيده أبا الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [٤٥٨هـ] ، المحكم والمحيط الأعظم- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م. مادة ر ي ن.

(٣) الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس. مادة ر ي ن.

(٤) أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ) – غريب الحديث: ٢٧٠/٣.

(٥) نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (٥٧٣هـ)- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم- د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله –دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)- ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٧١٠/٤. مادة ر ي ن.

(٦) الجوهري ، صحاح اللغة، مادة ر ي ن.

٤- تربط المعاجم بين (الرين) و (الطبع)، وبعض المعاجم تجعلهما بمعنى واحد، ولذا لابد من التمييز بينهما.

بعد التحليل لمعنى (ران) فالمكونات الدلالية لـ (الرين) هي:

الصدأ + الغلبة والإحاطة + الدنس والوسخ + عملية تدريجية.

المقارنة بين (ران على قلوبهم) و(طبع على قلوبهم) و(ختم علي قلوبكم):

تربط المعاجم التركيب (ران على قلوبهم) بالتركيبين الآخرين هما: "طبع على قلوبهم" و"ختم على قلوبكم" ويظهر هذا كالآتي:

قَالَ ابْنُ الأَثِير: كَانُوا يَرَوْنَ أَن الطَّبْعَ هُوَ الرَّيْنُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّيْنُ أَيسر مِنَ الطَّبْعِ، وَالطَّبْعُ أَيسر مِنَ الإِقْفالِ، والإِقْفالُ أَشدّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، هَذَا تَفْسِيرُ الطَّبْعِ، بإِسكان الْبَاءِ، وأَما طَبَعُ الْقَلْبِ، بِتَحْرِيكِ الْبَاءِ، فَهُوَ تَلْطِيخُهُ بالأَدْناس، وأَصل الطبَع الصَّدَأُ يَكْثُرُ عَلَى السَّيْفِ وَغَيْرِهِ...طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ أَي خَتَمَ عَلَيْهِ وَغَشَّاهُ وَمَنَعَهُ أَلطافه؛ الطَّبْع، بِالسُّكُونِ: الْخَتْمُ، وَبِالتَّحْرِيكِ: الدَّنَسُ، وأَصله مِنَ الوَسَخ والدَّنَس يَغْشَيانِ السَّيْفَ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ فِيمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ مِنَ الأَوْزار والآثامِ [١].

وذكر الأزهري أن الطبع والختم واحد عند بعض العلماء: يقال طبع الله على قلب الكافر، أي ختم عليه فلا يعي وعظًا ولا يوفق لخير. والطابع: الخاتم.. قلت: فهذا تفسير الطبع بتسكين الباء على القلب. وأما طبع القلب بحركة الباء فهو تلطخه بالأدناس. وأصل الطبع: الصدأ يكثر على السيف وغيره. قال أبو عبيد: الطبع الدنس والعيب، وكل شين في دين أو دنيا فهو طبع[٢].

وذكر ابن سيده في (المحكم):

خَتمه يَخْتِمُه خَتْما..: طبعه. والخَتْم على القَلب: أَلا يفهم شَيْئا وَلَا يخرج مِنْهُ شَيْء، كَأَنَّهُ طبع. وَفِي التَّنْزِيل: (خَتَم الله على قُلُوبهم)، أَي: طبع. قَالَ أَبُو إِسْحَاق: معنى خَتم،

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة ط ب ع. وانظر أبا عبيد الهروي،أحمد بن محمد (٤٠١ هـ) الغريبين في القرآن والحديث- تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي - راجعه: أ. د. فتحي حجازي - مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية- ط١/١٩٩٩ م.٤/١١٥٧.

(٢) الأزهري، تهذيب اللغة، مادة ط ب ع.

وطبع فِي اللُّغة وَاحِد، وَهُوَ التغطية على الشَّيْء والاستيثاق من أَلا يدْخلهُ شَيْء[١]..

وذكر ابن السكيت: والطبع: تلطخ العرض وتدنسه.يقال: طبع السيف، إذا صدئ[٢].

وذكر الخليل أن :الطَّبْعُ: الختم على الشيء. وقال الحَسَنُ: إنّ بين الله وبين العبد حدًّا إذا بلغه طُبع على قلبه، فوُفِّق بعده للخير[٣].

وفي "مجمع بحار الأنوار": "طبع" الله على قلبه، أي ختم عليه وغشاه ومنعه ألطافه، والطبع بالسكون الختم وبالحركة الدنس وأصله من الوسخ والدنس يغشيان السيف، من طبع السيف، ثم استعمل في الأنام وغيرها من القبائح. ومنه: أعوذ من طمع يهدي إلى "طبع"، أي شين وعيب، ويرون أن الطبع هو الرين؛ مجاهد: الرين أيسر منه وهو أيسر من الإقفال[٤].

هذه الأقوال المذكورة في المعاجم جعلت العلاقة الدلالية وثيقة بين الكلمات الثلاث (الرين) و(الطبع) و(الختم). فالطبع هو الرين، والطبع هو الختم. وقد وضعها مجاهد في درجات دلالية: فالرين أيسر من الطبع، والطبع هو الختم، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد ذلك كله.

إن عملية التحليل اللغوي لابد أن تُضيف إلى ذلك فروقًا دلالية تعتمد على اختلاف جذورها، واختلاف السياقات القرآنية الواردة فيها.

وكما درسنا التركيب (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) فاستخرجنا مكوناته الدلالية، وهي:

الصدأ + الغلبة والإحاطة + الدنس والوسخ + عملية تدريجية.

وهذا هو التركيب الوحيد في القرآن: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) سورة المطففين. فذنوبهم تراكمت حتى كأن القلب اسودَّ من كثرتها، فأصبح الصدأ يغلب عليها، فذهب صفاؤها وجلاؤها. وكما جاء في (روح البيان):

---

(١) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، مادة خ ت م.

(٢) ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (٢٤٤هـ) كتاب الألفاظ (أقدم معجم في المعاني–ص ٣١٩.

(٣) الخليل، العين، مادة ط ب ع.

(٤) جمال الدين الكجراتي– مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار– ٤٣٠/٣.

والرين صدأ يعلو الشيء الجلى والطبع والدنس، والران هو الحجاب الحائل بين القلب وعالم القدس، وهو الصدأ فإن الصدأ حجاب رقيق يزول بالتصفية ونور التجلي لبقاء الإيمان معه[1].

فالمعنى الذي تعبر عنه الآية هو كيف أن الذنوب تصنع حاجبًا بين القلب والإيمان، هذا الحاجب هو الصدأ الذي قضى على صفاء القلب، وهذا الحاجب من الصدأ المتراكم تدركه العين فهو محسوس. ولذا فالإدراك لطبقة كثيفة من الصدأ أوضح كثيرًا من إدراك فكرة تراكم الذنوب.

وهنا لابد من المقارنة بين الفكرة التجريدية لغلبة الذنوب على القلب وبين تراكم طبقات الصدأ على القلب، وهو تعبير القرآن (ران على قلوبهم). فالصدأ على الأشياء يتم بشكل تدريجي فكلما ارتكب ذنباً تزداد طبقات الصدأ وتتآكل طبقات القلب فتؤدي إلى تلفه، وهو أيضاً يمثل الدنس والوسخ على أي سطح يصيبه، وهو ما صوره الحديث الشريف، فالذنب كالنكتة تصيب القلب، وتتكرر فتغلب على القلب، وإن كان يمكن العودة إلى صفاء القلب، فقد ورد هذا في تفسير التركيب القرآني. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

"إِنَّ الْعَبْدَ إذا أخطأ خطيئة نكتت فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَتْ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ فِيهِ، فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)"[2].

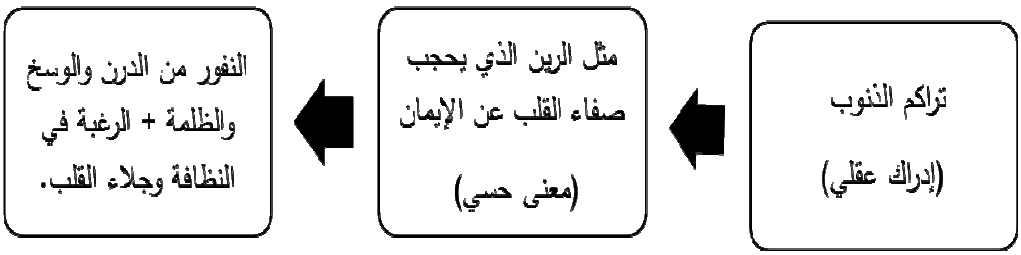

(١) إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، المولى أبو الفداء (١١٢٧هـ) – روح البيان –١٠/ ٣٦٧–٣٦٨.

(٢) ابن حبان– الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان– ٢٧/٧.

الفكرة التجريدية تم تصويرها بمعنى حسي (تدركه العين)، وتترك أثرا نفسيا يدفع إلى النفور من الرَّين. وقابلية هذا الرين للزيادة والنقصان تجعل الأمل قريبا في التوبة والاستغفار، الأمر الذي يؤدي إلى جلاء القلب. وهذا يعني كما قال مجاهد: الرَّيْنُ أَيسر مِنَ الطَّبْعِ؛ لأن الرين كما حدث تدريجيًا فيمكن العودة فيه كذلك، واسترداد حالة الصفاء القلبي. أما الطبع فيكون في بداية الصنعة مرة واحدة.

ومن أجل استكمال التحليل اللغوي ننظر أولاً في معاني الجذر في كلٍّ :

أولاً: الجذر "طبع" يختلف عن "ختم"

وطَبَعَ الله الخَلْقَ: خَلَقَهُم، وقال الحَسَنُ: إنّ بين الله وبين العبد حدّاً إذا بلغه طُبع على قلبه، فوُفِّق بعده للخير[١]. وربط الخليل بين جُبل وطبع، قال: وجُبِلَ الإنسان على هذا الأمرِ، أي طُبع عليه[٢]. وذكر الأزهري أن: الأبله: الذي طبع على الخير، فهو غافل عن الشر لا يعرفه[٣].

وفي المُغرِب: (الطَّبْعُ) ابْتِدَاءُ صَنْعَةِ الشَّيْءِ[٤].

فإذا كان (الطبع) في الأقوال السابقة هو ما جُبِل عليه الإنسان، وهو ابتداء صنعة الشيء فإن بعض المعاجم جعلته في الجهة الأخرى، وهو الختم، ففي مقاييس اللغة:

(طبع) الطاء والباء والعين أصل صحيح، وهو مثل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها، يقال: طبعت على الشيء طابعا. ثم يقال على هذا: طبع الإنسان وسجيته. ومن ذلك طبع الله على قلب الكافر، كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور، فلا يوفق لخير. ومن ذلك أيضا: طبع السيف والدرهم، وذلك إذا ضربه[٥].

وفي (ختم) ذكر مقاييس اللغة أن الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بلوغ آخر الشيء. يقال ختمت العمل، وختم القارئ السورة. فأما الختم، وهو الطبع على الشيء، فذلك من الباب أيضا؛ لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره[٦].

---

(١) الخليل ، العين ، مادة ط ب ع.
(٢) الخليل ، العين ، مادة ج ب ل.
(٣) الأزهري ، تهذيب اللغة . مادة ب ل ه.
(٤) ناصر بن عبد السيد برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِيّ (٦١٠هـ)- المُغرِب في ترتيب المعرب، ص ٢٨٨.
(٥) ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة ط ب ع.
(٦) السابق ، مادة خ ت م

فالتسوية بين (طبع) و(ختم) لا يقول بها المعنى المستقل لجذريهما، حيث يرتبط كلاهما بكلمات حقله، ولذا فكلام ابن فارس وغيره لا يؤيده معنى الجذر في كليهما.

ففي القاموس المحيط: الطَّبْعُ، والطَّبيعَةُ، والطِّباعُ، ككتابٍ: السَّجِيَّةُ جُبِلَ عليها الإنسانُ، الطِّباعُ ككتابٍ: ما رُكِّبَ فِينا من المَطْعَمِ والمَشْرَبِ وغَيْرِ ذلك من الأخْلاقِ التي لا تُزايِلُنا، كالطَّابِعِ[١].

وذكر ابن دريد أن الخلق: خلق الْإِنْسَان الَّذِي طبع عَلَيْهِ[٢].

وذكر ابن دريد كذلك: الطَّبْع من قَوْلهم: طبع الرجل على الشَّيْء طبعًا إِذا جُبل عَلَيْهِ. والطبيعة: الخليقة الَّتِي جبل عَلَيْهَا[٣].

وفي صحاح العربية عن (الطبع): السجيّةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان، وهو في الأصل مصدرٌ، والطَبيعَةُ مثله، وكذلك الطِباعُ. والطَبْعُ: الخَتْمُ[٤].

ف(الطبع) لا يمكن أن يكون بمعنى (الختم) كما ورد في معظم المعاجم، وهذا هو ما جعل العسكري في "الفروق اللغوية" ينص على اختلاف معنى (طبع) عن (ختم): "أَن الطَّبْع أثر يثبت فِي المطبوع وَيلْزمهُ، فَهُوَ يُفِيد من معنى الثَّبَات واللزوم مَا لَا يفِيدهُ الْخَتْم..طبع الإنسان لِأَنَّهُ ثَابت غير زائل وَقيل طُبع فلَان على هَذَا الْخلق إِذا كَانَ لَا يَزُول عَنهُ، وَقَالَ بَعضهم الطَّبْع عَلامَة تدل على كنه الشَّيْء[٥].

وذكر أيضاً أن: الطبيعة مَا طبع عَلَيْهِ الْإِنْسَان أَي خلق، والقريحة فِيمَا قَالَ الْمبرد مَا خرج من الطبيعة من غير تكلّف، وَمِنْه فلَان جيد القريحة[٦].

إذن ترتبط كلمة (الطبع) في حقلها الدلالي بـ: (الطبيعة) و(الجِبِلة) و(السليقة) والخليقة والقريحة، وابتداء صنعة الشيء.

---

(١) الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة ط ب ع.

(٢) ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة خ ل ق ،٦١٨/١.

(٣) السابق – مادة ط ب ع – ٣٥٧/١.

(٤) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة ط ب ع.

(٥) أبو هلال العسكري –الفروق اللغوية–ص ٧٣.

(٦) السابق– ص ٨٦.

والمكونات الدلالية لـ (طبع): الخَلْق + يكون بالخير أو بالشر + بداية ما جُبل عليه + الثبات عليه + ارتباطها ب "قبل"(الطبع قبل وقوع المخالفات لعلم الله بهم).

أما السياقات التي وردت في القرآن (نطبع على قلوبهم) فهي:

- "ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤)" سورة يونس.
- "وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١)" سورة الأعراف.
- "أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(١٠٠)" سورة الأعراف.
- "رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ(٨٧)" سورة التوبة.

هذه الآيات التي ورد فيها الفعل (طبع) أو (نطبع) فيها عدة ملاحظات، هي:

أولاً: وصفت (القلوب) بأنها: (قلوب المعتدين) أو (قلوب الكافرين)، فهي طُبعت وخُلقت هكذا.

ثانياً: وصفت هؤلاء بأنهم (هم لا يسمعون) أو (هم لا يفقهون)، والتعبير بالجملة الاسمية يعني الحقيقة الثابتة عنهم، وهذا يعني أنهم لا أمل فيهم لأنهم طُبعوا وجُبلوا على ذلك.

ثالثاً: تاريخ هؤلاء من التكذيب يظهر في قوله (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ)، إذن لن يُغيروا موقفهم، فهم مستمرون على ما هم عليه.

وهنا لابد من النص على أن طبعهم على ذلك وخلقهم عليه لا يمنعهم من فهم حقيقة الإيمان، والاستجابة لأوامر الله، لكنه العناد. ولذا فقوله تعالى: " فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً" بعد قوله تعالى "بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً". فسواء فسروا "إلا قليلا" بمعنى قليلا ما يؤمنون، أو أن قليلين منهم يؤمنون، فهذا يرد قولهم "قلوبنا غلف".

وسياق الآية هو:"فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٥٥)" سورة النساء.

وقد فسرها أبو السعود بأن "وَقَوْلِهِمْ قلوبنا غلف" أي هي مغشاةٌ بأغشية جبلية لايكاد يصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ، أو... هي أوعيةٌ للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا..وقال الكلبي يعنون أن قلوبَنا.. لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان في حديثك خير لوعته أيضًا. "بل طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ"..رد زعمهم الفاسد أي ليس كفرُهم وعدمُ وصولِ الحقِّ إلى قلوبهم لكونها غُلفًا بحسب الجِبِلّة بل الأمرُ بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم أو ليست قلوبهم كما زعموا بل هي مطبوع عليها "فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً" منهم كعبدِ اللَّهِ بنِ سَلاَم ..أو إلا إيمانًا قليلاً لا يُعبأ به[1].

فقد طبع الله عليها "قبل" ذلك؛ لعلمه بأن أكثرهم سيكفرون، ولتأكيد تحملهم الذنب أن قليلين منهم هم المؤمنون "فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً". فالطبع يكون بالخير والشر، وإن كان أكثره في سياقات القرآن يرتبط بالكفر والعقاب.إذن السياقات القرآنية توضح أن هؤلاء جُبلوا وطبعوا من بدء خلقهم على ما هم عليه قوله "فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ"، وهو لا يسمعون ولا يفقهون، فموقفهم ثابت لا يتحول إلى الإيمان بما كفروا به.

أما (ختم) فكما جاء في المعاجم، فمعناها يرتبط بالنهايات وبآخر الأشياء أو العواقب.قال ابن دريد: ختمت الشَّيْء أختمه ختما إذا بلغت آخِره[2]. وفي صحاح العربية: وخَتَمْتُ القرآنَ: بلغت آخره. واختتمت الشيء: نقيض افتتحتُه[3].

وقد ذكرت بعض المعاجم أن ختم بمعنى طبع، فابن سيده في (المحكم) قال: خَتمه يَخْتِمُه خَتْمًا وخِتامًا: طبعه. والخَتْم على القَلب: أَلا يفهم شَيْئا وَلَا يخرج مِنْهُ شَيْء، كَأَنَّهُ طبع. وَفِي التَّنْزِيل: (خَتَم الله على قُلُوبهم)، أَي: طبع. قَالَ أَبُو إِسْحَاق: معنى خَتم، وطبع فِي اللُّغَة وَاحِد، وَهُوَ التغطية على الشَّيْء والاستيثاق من أَلا يدْخلهُ شَيْء...وَالْأَصْل فِي الْخَتْم ختم الْكتاب لِأَنَّهُ يَقع بعد الْفَرَاغ مِنْهُ[4].

---

(١) أبو السعود العمادي (٩٨٢هـ)-تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم- ٢٥١/٢.

(٢) ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة خ ت م.

(٣) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة خ ت م.

(٤) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص ٧٢.

لابد إذن من تحديد المكونات الدلالية للفعل (ختم)، وهي:

المنع والحجب أو التغطية على الشيء + بلوغ آخر الشيء + الختم مرحلة تأتي مرتبطة بـ"بعد" (يكون الختم بعد وقوع المخالفات منهم)+ أكثره في العقاب والشر لأنه يأتي "بعد"، وأقله في الخير.

والكلمات التي ترتبط ب (الختم) في اللغة: التَمام، الانتهاء، الانقضاء، الآخِر، الخاتِمة، الخِتام.

والسياقات القرآنية للفعل "ختم" كالتالي:

• "اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(٦٥)" سورة يس.

• "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ(٤٦)" سورة الأنعام.

• قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ(٤٦)" سورة الأنفال.

• "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨)" سورة البقرة.

• "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٤)" سورة الشورى.

وأقوال المفسرين في تفسير هذه الآيات كما يلي:

قال ابن عجيبة: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ أي: نمنعهم من الكلام، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ. يُروى: أنهم يجحدون، ويُخاصمون، فتشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم[1].

فالختم هنا "بعد" أن فعلوا وارتكبوا ، فالختم على الأفواه والمنع للكلام ،لأن سائر الأعضاء يشهد بما اقترفوا فالأفواه ختم الله عليها فلا دور لها .

(١) ابن عجيبة (١٢٢٤هـ) – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد– ٥٧٩/٤.

ولننظر في سياق استعمال القرآن للتركيب " ختم الله على قلوبهم" نجد في سورة الأنفال العبارات التي توضح انصرافهم عن آيات الله، قال تعالى "انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ". وفي الآية السابعة من سورة البقرة ذكر القرآن الكافرين، قال: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)". فهؤلاء وقع منهم الكفر، فإنذارك وعدمه سواء، ولذا أتى الختم بعد ذلك، ولذا ف"لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

وفي التركيب "يختم على قلبك" في سورة الشورى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، فسره السمرقندي بأنه "يعني: تقوله من ذات نفسه، ولم يأمره الله تعالى. قال الله تعالى: فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ يعني: يحفظ قلبك، حتى لا تدخل في قلبك المشقة والأذى من قولهم"[١]. فالختم على القلب أتى بعد ما صدر منهم ما يؤذي النبي ﷺ ويشق عليه. فالختم على القلب هنا لصالح النبي بعد أن افترى هؤلاء على النبي ﷺ بهذا القول، ولذا فقد فسره قتادة بأنه وَقَوله: (فَإِن يَشأ يَخْتم على قَلْبك)، قَالَ قَتَادَة: الْمَعْنى: إِن يَشَأْ يُنْسِكَ مَا آتاك. وَقَالَ الزّجاج: مَعْنَاهَا: يرْبط على قَلْبك بِالصبرِ على أذاهم[٢].

وقد ذكر الزمخشري عن قتادة "يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ": يُنسِك القرآن ويقطع عنك الوحى، يعنى: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ: يربط عليه بالصبر، حتى لا يشق عليك أذاهم[٣].

فالختم هنا يأتي بعد تقولهم على الرسول كذبا، ثم هو ختم بالخير، لأنه تغطية على أذاهم، وحجبٌ لما يؤذي النبي ﷺ من أقوالهم وأفعالهم. فالختم هنا لأنه متعلق بقلب النبي ﷺ فهو خير، لأنه يُبعد عنه ما يتعبه. ولا يكون الختم بقطع الوحي ولا نسيان القرآن (التفسير المذكور لقتادة) لأن هؤلاء الذين تقولوا على رسول الله كذبا فإذا حدث ختم، فإنه لإبعاد الأذى وحجبه عن النبي ﷺ.

---

(١) أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (٣٧٣هـ)- بحر العلوم – ٣/ ٢٤٣.

(٢) ابن سيده- المحكم والمحيط الأعظم-مادة خ ت م. ورد قول الزجاج في "معاني القرآن وإعرابه-٤/ ٣٩٩.٩.

(٣) الزمخشري ، الكشاف، ٤/ ٢٢٢.

فالختم هنا: تغطية وحجب في الخير + يأتي "بعد" ما قالوا .

بعد دراسة المعاني المعجمية والسياقات القرآنية التي ورد فيها: ران وطبع وختم يمكن صياغة الخلاصة في الجدول الآتي:

رقم	التركيب "ران على قلوبهم"	التركيب"تَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ"	"خَتَمَ الله على قَلُوبهم"
١	معناه: غلب الصدأ والدنس على قلوبهم	خلقهم الله على ذلك.	منع الله وحجب عن قلوبهم ما يريد
٢	المعنى حسي	المعنى تجريدي	المعنى تجريدي.
٣	الفاعل هو (ما كانُوا يَكْسِبُونَ) أي عملهم.	الفاعل هو الله وحده	الفاعل هو الله وحده
٤	مكانه القلوب	مكانه القلوب	مكانه القلوب والأسماع والأفواه (هناك في الجنة الرحيق المختوم "خِتَامُهُ مِسْكٌ").
٥	فعل تدريجي لتراكم طبقاته	الطبع يتم "قبل" أعمال العباد.	الختم بعد وقوع أفعال معينة
٦	فعل للشر.	يكون بالخير والشر	أكثره بالشر وأقله بالخير.
٧	يمكن الرجوع فيه	يمكن التغيير فيه	لو وقع لا يمكن تغييره
٨	يتحقق في "أثناء" رحلة الحياة.	يتم عند بدء الصنعة	يحدث في ختام الأحداث.
٩	تصوير لما تفعله الذنوب في قلوب الناس.	تقرير لما يحدث في البدء.	تقرير لما يحدث في النهاية
١٠	له أثر نفسي كالنفور من الذنوب وإرادة التغيير.	إخبار الإنسان ليُعمل عقله.	إخبار الإنسان ليفكر في عواقب الأفعال.

بعد هذا التحليل هل يمكن القول : إن ران بمعنى طبع وختم ؟

رغم أن المعنى الحسي يولد صورة من التركيب يظل أثرها في النفس كلما قرأنا، فنتصور الصدأ على القلب طبقات تنفر النفس من وجوده، فيبحث عن طريقة للتخلص منه ، قد تكون الحسنات يتبعن السيئات لمحوها. فالحل في "ران" لهذا موجود إن أراد الإنسان.أما الطبع والختم فلا سبيل.

وهل يمكن التسوية بين الثلاثة رغم أن فاعل "ران" هو أعمالنا في حين أن فاعل: طبع وختم هو الله تعالى ، فالفاعل في الأول عملنا أو أفعالنا ، والفاعل في طبع وختم هو قرار إلهي اتخذه لإحاطته بما وقع ويقع من النفس الإنسانية.

سادسًا: قري عينا – بأعيننا– عَلى عَيْنِي

إن كلمة(عين) تعني هذا العضو في الكائن الحي الذي وظيفته الإبصار أو الرؤية، ولقد كثر في القرآن الكريم استعمال كلمة "عين" في تراكيب متعددة، وكل استعمال يتناول جانبا من الجوانب الدلالية فيها. فحركات العين لها دلالاتها، ووظيفة العين لها استعمالاتها.

أولاً: حركات العين: (وَقَرِّي عَيْنًا)

يمكننا أن نرى أفعالاً في اللغة معتمدة على حركات العين، فاللمز والغمز من الحركات المذكورة بالأفعال في القرآن، مثلا في قوله تعالى "الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ(٧٩)" سورة التوبة.

ذكر ابن سيده أن: اللَّمْزُ: العَيْبُ في الوَجْه بالعَيْنِ والرَّاسِ والشَّفَة، مع كَلامٍ خَفِيٍّ[١].

وابن منظور: اللَّمْزُ: الْعَيْبُ فِي الْوَجْهِ، وأَصله الإِشارة بِالْعَيْنِ والرأْس وَالشَّفَةِ مَعَ كَلَامٍ خَفِيٍّ[٢].

وفي قوله تعالى "وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ(٣٠)" سورة المطففين.وقد فسروا "يتغامزون" بيغمز بعضهم بعضا، ويشيرون بأعينهم فَكِهِينَ ملتذين بذكرهم والسخرية منهم[٣].

---

(١) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، مادة ل م ز.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة ل م ز.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ٤ /٧٢٤.

فالغمز مرتبط بلغة الجسد، وهو إغلاق العين باتجاهٍ ما مما يوحي أن السر لا يتجه إلا إلى الشخص الذي تنظر إليه وتبقى العين الأخرى مفتوحة للآخرين[١].

وقد أشار القرآن إلى ارتباط دوران العين بالخوف والفزع كأنهم كالمغشي عليهم، في قوله تعالى "فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ(١٩)" سورة الأحزاب.

"وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا" (١٠)الأحزاب.

أما الوصف الذي تكرر في القرآن عدة مرات، فهو استقرار العين أو قرار العين دليل على السعادة والاطمئنان والهدوء النفسي. من ذلك قوله تعالى:

- "فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا" (٢٦) سورة مريم

أما أقوال اللغويين والمفسرين في "قري" فأهمها:جاء في كتاب (الكليات): "وقري عينا" مُشْتَقّ من الْقَرار، فَإِن الْعين إِذا رَأَتْ مَا يسر النَّفس سكنت إِلَيْهِ من النّظر إِلَى غَيره أَو من القر وَهُوَ الْبرد، فَإِن دمعة السرُور بَارِدَة لانصبابها من الدِّمَاغ، كَمَا أَن دمعة الْحزن حارة، وَلذَلِك يُقَال: (قُرَّة الْعين) للمحبوب، وقررت بِهِ عينا، كعلمت وقررت فِي الْمَكَان، كضربت: أقرّ فيهمَا[٢].

(وَقرِّي عَيْنًا) يَقُولُ: وَطِيبِي نَفْسًا وَافْرَحِي بِوِلَادَتِكِ إِيَّايَ وَلَا تَحْزَنِي. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: وَلْتَقْرُرْ عَيْنُكِ بِوَلَدِكِ[٣]. (وَقَرِّي عَيْناً) يعني بالولد، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: جاء يقر عينك سرورًا. الثاني: طيبي نفسًا. الثالث: تسكن عينك[٤].

فاستقرار العين أو قرار العين علامة على: السرور والسكون وطيب النفس. وهو عكس اضطراب حركة العين أو دورانها خوفا وفزعا كالمغشي عليه.

فما أفضلية التركيب (قري عينا) على التركيب (اسعدي واهنئي وطيبي نفسا)؟

---

(١) جوزيف ميسنجر، لغة الجسد النفسية، ترجمة محمد عبد الكريم إبراهيم–ص ٢١٦.

(٢) الكفوي، أبو البقاء، موسى الحسيني(١٠٩٤هـ) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – ص ٧٣٣.

(٣) الطبري، جامع البيان، ٥١٥/١٥.

(٤) الماوردي (٤٥٠هـ) – تفسير الماوردي = النكت والعيون–٣٦٧/٣. وكذلك قال أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ)–تفسير القرآن–٢٧٥/٢.

يقول دارسو النفس الإنسانية إن نشأة الأفكار والأحاسيس تبدأ من الأمور المحسوسة ثم تتحول إلى المعنويات، وكما يقول "دراسات في النفس الإنسانية" إن الخوف والرجاء يبدآن في نطاق المحسوسات أولا ثم يرتقيان إلى نطاق المعنويات، فأول حب يحسه الطفل لأمه، وهي تحتضنه وترضعه، ثم ينتقل الحب ويمتد إلى غير أمه من الأشخاص والأشياء. فامتداد الحب إلى ما بعد مرحلة الرضاعة والاحتضان هو بدء الدخول في العالم المعنوي(١).

فالمحسوسات هي القاعدة والأساس الذي تُبنى عليه المعنويات وتظل في دائرة الإدراك وتتسع وتمتد إلى أن تستقر في خيالنا وتصوراتنا.

فلو قلنا السيدة مريم رضي الله عنها(سعيدة وهانئة وطيبة النفس) فالتركيب يتعامل مع الأفكار المجردة للسعادة والهناء وطيب النفس، أما التعبير(قريرة العين) فالجانب الحسي الظاهري لاستقرار العين وهدوئها ينتقل إلينا ويعكس ما بداخل النفس من سرور وهدوء حقيقي. فاستقرار العين يتعامل مع حاسة الإبصار، ويصور للقارئ ما ينعم به قرير العين شكلا ومظهرا من السعادة، وهو دليل خارجي لسعادة نفسية داخلية لا ينالها إلا من حصَّلوا السعادة الحقيقية فهدأت عيونهم. فالعين مرآة النفس.

وكما يقول "لغة الجسد النفسية" إن العينين تمثلان انفعالاتنا ونظرة النفس ، ويلعبان دائما دورا في مجال التواصل ، وليس من السهل دائما ترجمة بعض مواقف الشدة بوساطة الكلمات(٢).

فكلمات اللغة المباشرة قد تكون أضعف من تصوير إحساسنا، فنقل الشكل الذي يعكس إحساسنا بكلمات اللغة "قري عينا" يصور لنا باطن النفس وقوة المشاعر، فاستعمال إحدى الحواس من لغة الجسد تجعلنا نقف أمام هذه الصورة ونستبطن حالتها النفسية. فتصوُّر السعادة في قرار العين، والخوف في دوران العين ، والحيرة والصدمة في زوغان الأبصار، كل هذا تدركه النفس من خلال حركة العين التي تنقل شعورا حقيقياً يقدم لنا صورة كلية لمشهد السعادة والاطمئنان في قرار العين، وكذلك بقية

(١) محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق- ط١٠- ١٩٩٣م ص ٨٨.

(٢) جوزيف ميسنجر، لغة الجسد النفسية، ص ٢٥٦.

المعاني، فتحولت المعاني المجردة الداخلية إلى صورة خارجية تؤثر فينا، ويبقى أثرها بدلا من سرعة تلاشي الأفكار المجردة لأنها معروفة عند السامع، وكذلك مفككة فليست صورة كلية لمشهد لا يُنسى من السعادة أو الفزع أو الحيرة.

ثانياً: وظيفة العين: بأعيننا – عَلى عَيْنِي

إذا كانت اللغة استغلت دلالة حركات العين فقد استغلت أيضاً أهمية وظيفتها بين أعضاء جسم الإنسان، فوظيفتها من أهم الوظائف عند الإنسان، فهي المبصرة لكل ما يحيط به من أخطار، وهي الحافظة الراعية له من أي مكروه. فهي دليل العناية والرعاية والحفظ.

والقرآن له استعمالات لـ(العين) في تراكيب دقيقة المعنى، منها:

- "وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ" (٣٧) هود
- "فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ"(٢٧)المؤمنون.
- "وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ" (١٤) القمر.
- " وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ "(٤٨) الطور

الذي نلاحظه في الآيات أن التركيب "بأعيينا" استعمله القرآن الكريم أربع مرات، ثلاث منها مع سيدنا نوح، والرابعة مع سيدنا محمد ﷺ . واستعمل تركيبا آخر هو "على عيني" مع سيدنا موسى عليه السلام ، وهو قوله تعالى "وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي"(٣٩) طه.

وقبل البدء في تحليل هذه التراكيب نذكر أن ابن عطية نص في المحرر الوجيز على أن قول جمهور الأمة أن تفسر هذه الأمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب. فقالوا في العين والأعين إنها عبارة عن العلم والإدراك، وقالوا في اليد واليدين والأيدي إنها تأتي مرة بمعنى القدرة كما تقول العرب لا يد لي بكذا، ومرة بمعنى النعمة كما يقال لفلان عند فلان يد[1].

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ٢/٢١٥.

والتراكيب هي:

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وتَجْرِي بِأَعْيُنِنَا، جملتان فعليتان مع سيدنا نوح، واستخدم مع سيدنا محمد ﷺ التركيب: إنك بأعيينا. وهي جملة اسمية مؤكدة بـ"إنَّ"، واسم إن الذي كان مبتدأ هو الضمير الكاف في "إنك" يرجع إلى سيدنا محمد ﷺ.

فالتركيب "وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا" فيه صناعة الفلك هي التي تتم بأعيينا، والتركيب الثاني "تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا" فيه جريان السفينة هو الذي يتم إنجازه بأعيينا، أما سيدنا محمد ﷺ، فهو ذاته بأعيننا "إنك بأعيينا".

أما تركيب "على عيني" في (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) فورد باستعمال الحرف "على" وبصيغة المفرد "عيني" وليس بصيغة الجمع .

والتركيب "بأعيننا" الباء من معانيها التي استعملت فيها الإلصاق والاستعانة والظرفية، والنظر في السياق هو الذي يحدد معناها، أي أن التركيب المختلف يوجهنا إلى استعمال مختلف، وتعلُّق "بأعيننا" بالجملة الفعلية يختلف عن تعلقها بالجملة الاسمية؛ إذ هي مع الجملة الاسمية قد تكون أحد شِقَيْ الجملة بمعنى أنها عمدة.

فالتركيب:

- اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا(أتى مرتين في سورة هود والمؤمنون).
- تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا(أتى مرة).
- فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا(أتى مرة).

الاستعمال الأول والثاني ورد "بأعيننا" في جملة فعلية، والثالث في جملة اسمية.

ففي الجملة "اصنع + ب +أعيننا

والجملة: تجري + ب + أعيننا

فالباء هنا معناها "الاستعانة" لأنه سيصنع سيدنا نوح السفينة وستجري بالاستعانة بأعين الله التي هي الرعاية والعناية والتعليم والحفظ، والتي قد يُفهم من جمع "أعين" أنهم قد يكونون الملائكة يعملون في صنع السفينة بأمر الله. فالجار والمجرور "بأعيننا" متعلق بالفعل: اصنع و"تجري". وقد ذكر النسفي أن الجار والمجرور في "واصنع الفلك بأعيننا" هو في موضع الحال أي اصنعها محفوظاً، وحقيقته ملتبساً بأعيننا كأن لله أعينا

تكلؤه من أن يزيغ في صنعته عن الصواب[١]. فالرعاية والحفظ والعناية هي حالة مؤقتة بعملية الصناعة وجريان السفينة تنتهي بانتهاء مقتضياتها، أما الحقيقة المؤكدة التي هي مستمرة فهي "إنك بأعيننا".

فالصناعة "اصنع" والجريان "تجري" من الأحداث التي تحتاج إلى وسائل وأدوات لم تكن في خبرة أحد وقتذاك إلا قدرة الله.

أما التركيب: (فإنك بأعيينا) فالباء فيه من الأرجح أنها تعني الظرفية حين يقول الله تعالى للنبي ﷺ: إنك في أعيينا، فالجملة الاسمية المؤكدة التي وردت بعد طلب الله عز وجل من النبي أن يصبر، "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا"، فالجار والمجرور هنا "عمدة" أو ركن أساسي في الجملة الاسمية، لأنه متعلق بالخبر، فكأن تقدير الجملة: إنك– يا محمد– مستقر في أعيننا.

أما التركيب الذي يتحدث عن سيدنا موسى عليه السلام: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) فقد استعمل حرف الجر (على) وهي تفيد الاستعلاء، وبالتالي ليست في اقتراب ما بعدها بالفعل، فهي ليست كـ(الباء) التي تفيد الإلصاق، إنها من قبيل المتابعة للفعل والملاحظة والتربية له، وليس الالتصاق، ولذا فقد فسرها بعض المفسرين، ومنهم السمرقندي، قال:

وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي، يقول: ما يصنع بك على منظر مني وبعلمي وبإرادتي. إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ: لآل فرعون هَلْ أَدُلُّكُمْ؟ يعني: أرشدكم عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ يعني: يضمه ويحوطه ويرضعه. فَرَجَعْناكَ، يقول: رددناك إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها يعني: لتطيب نفسها. وَلا تَحْزَنَ[٢].

وذكر الطبري: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: وَلِتُغَذَّى وَتُرَبَّى عَلَى مَحَبَّتِي وَإِرَادَتِي[٣].

واجتهد بعض المفسرين في قوله تعالى (بأعيننا) و(على عيني)، وسووا بينهما في أقوالهم ومنها:

---

(١) النسفي ، ٥٧/٢.

(٢) السمرقندي ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (٣٧٣هـ) – بحر العلوم.٣٩٥/٢.

(٣) الطبري ، جامع البيان،٥٩./١٦

"فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا" فيه ثلاثة أوجه: أحدها: بعلمنا، قاله السدي. الثاني: بمرأى منا. الثالث: بحفظنا وحراستنا، ومنه قوله تعالى لموسى: "وَلِتُصنَعَ عَلَى عَيْنِي"(٣٩) طه، بحفظي وحراستي[١].

وَفي القرطبي عن تفسير "بأعيننا": قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (بِحِرَاسَتِنَا)، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، فَعَبَّرَ عَنِ الرُّؤْيَةِ بِالْأَعْيُنِ، لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ تَكُونُ بِهَا. وَيَكُونُ جَمْعُ الْأَعْيُنِ لِلْعَظَمَةِ لَا للتكثير. وَقَدْ يَرْجِعُ مَعْنَى الْأَعْيُنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى مَعْنَى عَيْنٍ، كَمَا قَالَ:" وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي"، وَذَلِكَ كُلُّهُ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِدْرَاكِ وَالْإِحَاطَةِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَوَاسِّ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّكْيِيفِ"[٢].

ونظر بعضهم إلى أنها من: المجاز المرسل في قوله: "وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي" فالعين هنا: بمعنى الرعاية، مجازًا مرسلًا، من إطلاق السبب وهو العين؛ أي: نظرها على المسبب، وهو الحفظ والرعاية، وفيه أيضًا الاستعارة التمثيلية: شبه شدة الرعاية وفرط الحفظ بمن يصنع بمرأى من الناظر؛ لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه، فمثل لذلك بمن يصنع على عين الآخر[٣].

فالتسوية واضحة في أقوال المفسرين بين التراكيب لأنهم – كما يبدو– ركزوا على (العين) و(الأعين)، ولم ينظروا في التركيب المستعمل فيه، فالتركيب يجب تحليله هكذا:

أولاً: الحرف المستعمل + الاسم.

ثانياً: الوظيفة النحوية للتركيب (جزء من جملة اسمية أم فعلية، عمدة أم متعلق بالفعل مثلاً).

ثالثاً: وكذلك السياق الوارد فيه هذا التركيب.

فالعين تعني الحفظ والدراية والإدراك والإحاطة، وقد قدم بعضهم تعليلاً لاستعمال العين للتعبير عن هذه المعاني، لأنها الوسيلة لذلك أو لأن الرؤية تكون بها (كما ذكرت الروايات السابقة).

---

(١) الماوردي، تفسير الماوردي، ٣٨٧/٥.

(٢) القرطبي، تفسيره، ٣٠/٩.

(٣) محمد الأمين العلوي الشافعي– تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، ٣٠٢/١٧– ٣٠٣.

وللمقارنة بين المعنى المجرد والمعنى الحسي هنا يمكن عمل الجدول التالي:

رقم	إنك في رعايتنا وحراستنا وحفظنا	إنك بأعيننا
١	المعنى المجرد للرعاية والحراسة والحفظ	المعنى الحسي بوساطة العين
٢	المعنى عام غير محدد	المعنى مميز لا يناله إلا الخاصة
٣	ليس دليلا إلا على رضا الله فنحظى برعايته وحفظه	دليل على قرب الرسول من الله عز وجل
٤	يوقن بالعقل أنه في أمان وحفظ فلابد أن يصبر لحكمه."يقين بالعقل"	يترتب على هذا شعور بالسكينة والهدوء النفسي لمن كان "بأعيننا"."اطمئنان.
٥	لا يتعدى أثره اليقين العقلي والمناسبة التي قيل فيها.	ينعكس هذا الأثر النفسي على كل تصرفات من يحظى بهذا لأنه في أمان دائم ؛لأن موضعه ومقره "بأعيننا".

وينطبق ما ورد في الجدول على قوله تعالى (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا)، كذلك قوله تعالى (وَلِتُصنَعَ عَلَى عَيْنِي).

ويمكن المقارنة بين "بأعيننا" في التركيبين "فإنك بأعيننا" "وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا" في الجدول التالي:

رقم	"فإنك بأعيننا"	وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
١	الخطاب موجه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وإخباره من الله عز وجل له	الخطاب لسيدنا نوح "أمر" ب "اصنع ، فالموضوع "صناعة السفينة.
٢	من مكونات جملة اسمية	من مكونات جملة فعلية
٣	الجملة خبرية مؤكدة ب "إن" تفيد الثبوت	الجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث

٤	عمدة " متعلق بالخبر "كائن" أو "مستقر"	فضلة في موضع نصب على الحال أي محفوظا بأعيننا
٥	الباء معناها الظرفية "في أعيننا"	الباء معناها الاستعانة والإلصاق
٦	العناية والحفظ والرعاية دائمة	العناية والحفظ والرعاية حال صناعة الفلك وجريانها فقط
٧	الهدوء الداخلي والنفسي والصبر لسيدنا محمد.	الاطمئنان إلى متابعة الله لصنع سفينة النجاة.

والتركيب القرآني (وَلتُصنَعَ عَلَى عَيْنِي) يمكن مساواته بقوله تعالى (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا)؛ فكلاهما جزء من جملة فعلية، فالحفظ والرعاية مرتبطان باستمرار الفعل، و"على عيني" حال أي لتربى وأنا مُتابع مراحل تربيتك، و"بأعيننا"حال أي محفوظا بأعيننا، وكونهما حالا فهما مرتبطان بتلك المرحلة من الصناعة، فهي متابعة وحفظ ما دامت الحالة. ولا يُقارن هذا بصورة وضع النبي صلى الله عليه وسلم في حفظ ورعاية من الله دائما، وذلك من استعمال التركيب الاسمي المؤكد "إنك بأعيينا".

سابعًا: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

"اليد" من أعضاء جسم الإنسان التي تأتي أهميتها من خلال وظائفها المتعددة، وقد استخدمتها اللغة في تراكيب كثيرة لتوصيل معانٍ، ما كان لكلمة أخرى أن تدل عليها في إطار استغلال تصوراتنا عنها. وقد ورد استعمال "يد" في القرآن مع الإنسان ومع لفظ الجلالة، وبعض هذه الاستعمالات يعبر عن "اليد " حقيقة، وذلك مثل قوله تعالى:"لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)" سورة المائدة.

واستعمال "يد" بدلالتها الحقيقية ليس موضع الدراسة والبحث هنا، فالدراسة هنا لاستعمال هذه الأدوات الحسية لتعبر عن دلالات عقلية أو معان مجردة، وأمثلتها كالتالي:

- "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ(٦٤)" سورة المائدة.

• "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)" سورة الإسراء.

• "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١)" سورة المائدة.

• "إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢)" سورة الممتحنة.

في الآيات السابقة نوعان من الدلالة ، بعضها دلالة خير وبعضها الآخر دلالة شر، ف" بسط اليد" قد يكون خيرا وقد يكون شرا، فبسط اليد بالرزق من الله خير، وبسط اليد بالسوء من الأعداء شر. وغل اليد شر، ولا يكون الغَلّ والقيد إلا شرًّا .

تحليل التراكيب:

التركيب الأول قوله تعالى "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ."

القائل : اليهود. التركيب: يد + الله + مغلولة

وقد ذكر السمين الحلبي أن قوله تعالى حكاية عن اليهود: {يَدُ الله مَغْلُولَةٌ} فيه قولان، أحدُهما: أنه خبرٌ مَحْضٌ. وزعم بعضُهم أنه على تقديرِ همزةِ استفهام تقديره: «أيدُ اللَّهِ مغلولةٌ»؟ قالوا ذلك لَمَّا قَتَّر عليهم معيشتهم[1]. وسواء أكانت خبرا أم إنشاء، فإن الله لعنهم وقال: "غلت أيديهم ولعنوا". إن صياغة الجملة التي نقلها القرآن عن اليهود بقالب: جملة اسمية؛ والمبتدأ فيها "يد الله"، وكأنهم يعلمون "ما عليه هذا المبتدأ" فيخبرون عنه، وتأتي صياغة الخبر، بصيغة اسم المفعول "مغلولة". صياغة الجملة تؤكد غضب الله عليهم، فقد ادعوا هذه الصورة على الله تعالى، فالله مالك الملك يبسط لمن يشاء ويقدر،

(١) أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي ٧٥٦(هـ)- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون -المحقق:د.أحمد محمد الخراط- دار القلم، دمشق.٣٤٢/٤.

فالله هو الفعّال لما يريد. ولذا رد الله قولهم بالدعاء عليهم، ودعاء الله حقيقة "غلت أيديهم ولعنوا"، وهذه الجملة تحليلها:

القائل: الله عز وجل. التركيب: غُلّت + أيدي + "هم" ضمير يعود على اليهود.وفسر ابن عطية قوله تعالى: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ: دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبرا، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا وأن يراد به الآخرة(١).

في هذا الخطاب من الله عز وجل يرد القرآن قول اليهود "يد الله مغلولة" بتركيب رتبه على قولهم.

الفعل "غُلت" مبني للمجهول من الفعل "غَلَّ" الذي صاغ منه اليهود الادعاء على الله تعالى، بمعنى أن الفاعل لـ"غلت "مجهول، كما صاغوا "مغلولة" اسم المفعول من "غلَّ"، فيكون توسيع دائرة العقوبة بأن يكون الفاعل في الدنيا مع عقوبة الله في الآخرة، و"أيديهم" هي نائب الفاعل.

ويكمل القرآن الرد على ادعاء اليهود بقوله "بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ"، ويمكن تحليله كالتالي:

القائل: الله عز وجل. والتركيب: "بل" حرف الإضراب عن كلامهم وتثبيت القول الصحيح:

يدا + "ه" الضمير يرجع إلى الله تعالى + مبسوطتان.

فـ"يد الله" في ادعائهم أصبحت بالمثنى "يداه"، والخبر للمبتدأ "مبسوطتان" بدلا من "مغلولة". والفعل "ينفق" يؤكد أن انبساط اليدين بإرادته وحده. "كيف يشاء".

فالجملة "يد الله مغلولة" من ادعاء اليهود، والرد عليها: يداه مبسوطتان .

وهذا التركيب دلالته عند العرب الجود إذا كان البسط لليد، والبخل إذا كان القبض لليد. فالكلام هكذا يكون "جَارِيًا عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ: فُلَانٌ يُنْفِقُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ...وَيُؤَيِّدُ أَنَّ الْيَدَيْنِ هُنَا بِمَعْنَى الْإِنْعَامِ قَرِينَةُ الْإِنْفَاقِ. وَمَنْ نَظَرَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَرَفَ يَقِينًا أَنَّ بَسْطَ الْيَدِ وَقَبْضَهَا اسْتِعَارَةٌ لِلْجُودِ وَالْبُخْلِ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَتِ الْعَرَبُ

(١) ابن عطية ، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ)- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢/ ٢١٥.

ذَلِكَ...فَجُمْهُورُ الْأُمَّةِ أَنَّهَا تُفَسَّرُ عَلَى قَوَانِينِ اللُّغَةِ وَمَجَازِ الِاسْتِعَارَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفَانِينِ الكلام(١).

هذا الاستعمال للغة وغيره اعتاد العرب أن يسمعوه من شعرائهم، وقد فسره البلاغيون على المجاز، وقد وجدت الموازنة عظيمة الجدوى بين المعنى المجرد الذي يدركه العقل فقط والمعنى الحسي الذي يدخل تأثيره في الإحساس ويبقى أثره في النفس لتكوين صورة كلية تراها للمعنى المرئي. ففضلا عن بيان الإمكانات اللغوية للعربية، فإنها تنقلنا إلى عالم حي واقعي من صور نتخيلها، فيبقى أثرها في نفوسنا.

فالتعبير عن البخل بـ(غل اليد) وشدها إلى العنق، صورة نقلتنا من عالم الإدراك العقلي للبخل إلى الإحساس بالضيق وكراهية هذه الصفة كما نكره صورة المقيدة يده بحبل إلى عنقه، شكل يُدرك بالعين في صورة كلية تُشد فيه اليد برباط إلى العنق فتضيق به النفس.

التركيب الثاني "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا"

القائل: الله عز وجل. مقام النهي عن البخل وعن التبذير. والجملة فعلية مُصدَّرة ب "لا" الناهية.

التركيب: لا الناهية + الفعل المضارع "تجعل" للخطاب + الفاعل مستتر "أنت" + يد المفعول الأول لـ"تجعل" + "الكاف" ضمير الخطاب + مغلولة المفعول الثاني ل "تجعل" + إلى + عنق + "الكاف" ضمير الخطاب.

هذا التركيب: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ،

اللبنة الأولى الصغرى فيه هي الجملة الاسمية: يدك مغلولة إلى عنقك،

وهي عبارة عن المبتدأ "يدك" + الخبر "مغلولة" + الجار والمجرور "إلى عنقك، وهو متعلق باسم المفعول "مغلولة" لأنه شد اليد أو غلها في العنق. فالروابط الشكلية Cohesion بين أجزاء التركيب واضحة من ارتباط المبتدأ بالخبر، والروابط الدلالية Coherence تظهر في تعلق المعنى المعجمي لـ"مغلولة" بـ"إلى عنقك".

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ٣١٥/٤.

ثم دخلت "وَلَا تَجْعَلْ" على الجملة: يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ، فالبنية النحوية للجملة القرآنية أتت باللبنة الصغرى المتماسكة، وأدخلتْ عليها الفعل "تجعل" بالنهي عن أن تصير بهذا الشكل المخالف لطبيعة خَلق الله لك. فلا يصير الإنسان هكذا ولا يصير إلى الشكل الآخر

"وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ" فلابد أن تكون وسطا بين هذا وذاك.

وإلا سيترتب على الشكلين: "فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا"

ففي الحالة الأولى "القبض أو الغل" ستكون ملوماً لأنك لم تعط وتنفق، وفي الأخرى ستكون: محسورا لأنك أهدرت ببسطك كل البسط "التبذير".

فالجملة "فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا" مكونة من فاء السببية التي تترتب على النهي "لا تجعل و"لا تبسطها". وهذا يربط بين أجزاء الجملة الكبرى.

فهذا التركيب القرآني الكبير "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا" مكون من أربعة تراكيب:

اللبنة الأولى: يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ. اللبنة الثانية: لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ

اللبنة الثالثة: وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ. اللبنة الرابعة: فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا".

والروابط الشكلية Cohesion واضحة بينها فاللبنة الأولى دخلت في كيان جملة: لا تجعل، وأصبحت مفعولَيها، واللبنة الثالثة ارتبطت بأداة العطف: الواو، والضمير "ها" في "تبسطها" وعائده على "يدك" في الجملة السابقة. واللبنة الأخيرة واضح فيها الارتباط الشكلي بالفاء السببية التي رتبت ما بعدها على ماقبلها، فهي رابطة شكلية أو نحوية دلالية.

أما الروابط الدلالية Coherence فيدخل فيها المخاطب "أنت" في: تجعل، و تبسطها، وتقعد. والإحالة هنا على المقام لأن كل إنسان مسلم مُخاطَب بهذا الأمر بدءا من النبي ﷺ حتى ما شاء الله. ورابطة الضد المعنوية بين الجملتين: "لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ" و"وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، والجملة الأخيرة فيها النتيجة لو حدث أحد الأمرين، وهو الغل أو البسط الشديد، "فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا".

فلو عقدنا مقارنة في الجدول الآتي بين التركيبين: لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، وتركيب بمعناه مما ذكره المفسرون من مثل النهي عن البخل أو الشح، في مزايا كل منهما من حيث المعنى المجرد والمعنى الحسي..

رقم	لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك	لا تكن بخيلا
١	المعنى حسيٌّ تدركه العين	المعنى المجرد "البخل"
٢	شكل يخالف الوضع الطبيعي	شكل عادي من جمل النهي
٣	صورة جديدة كلية منفرة	استعمال من مكونات اللغة لا يثير
٤	العقل يجرد منها صورة يبقى أثرها في النفس	ربما تُنسى بمجرد مرورها على العقل.
٥	خلق مقارنة بين الوضع الطبيعي وصورة البخيل.	لا تخلق مقارنة.
٦	كلمات مثل : الغل والعنق مرتبطة بالنار" إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ" سورة غافر ٧١.	البخل صفة في الإنسان قد يقاومها وقد يستسلم لها.

وإذا كان الغَل في الأعناق لا يكون إلا شرا فإن البسط لليد له ضوابط لا تظهر إلا في التراكيب النحوية المستعمل فيها ، وهذه أمثلة من تراكيب الجذر "ب س ط ":

النمط الأول: دلالته بسط للرزق، ففي آيات كثيرة يأتي في دلالة الخير كالآتي:

الفعل الماضي أو المضارع من "بسط"+الفاعل لفظ الجلالة+المفعول به"الرزق"، منها قوله تعالى:

" وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ(٢٧)" سورة الشورى

"إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ(٣٠)" سورة الإسراء

"قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ(٣٩)" سورة سبأ

النمط الثاني: دلالته بسط بالقتل والسوء ،يتكون هذا النمط من:

الفعل (بسط أو يبسط) + الفاعل + إلى ومجروره + يد أو أيد + اللام أو الباء ومجرورهما (وقد لا يأتي هذا العنصر)

إن الحرف "إلى" يميز هذا الشكل من أنماط التركيب، وكأن معناه انتهاء الغاية عند هذا الشخص المطلوب(١).

ففي قوله تعالى: في حادثة ابنَيْ آدم قابيل وهابيل.

"لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٢٨)" سورة المائدة.

فهذا بسط لليدين للقتل، والتركيب هو: بسط + الفاعل + يدي + لأقتلك. ومثله (مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ) وكذلك في قوله تعالى:

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١)" سورة المائدة.

أن يبسطوا + إليكم + أيديهم (بالقتل) ⟵ فكفَّ + الفاعل الضمير(الله) +أيديهم.

وكذلك قوله تعالى " إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢)" سورة الممتحنة.

يبسطوا + إليكم + أيديهم وألسنتهم + بالسوء.

فـ (الأيدي والألسنة) يعني بالقتل والأذى بالألسنة.

والمعجم العربي جعل مثل هذا الاستعمال في الخير والشر، فقد ذكر المعجم الوسيط: أن بسط يده إليه بما يحب ويكره: مدَّها، وبسط لسانه إليه بالخير أو الشر: أوصله إليه(٢).

النمط الثالث: دلالته الإخبار عن الله تعالى عن جوده وكرمه على عباده، والدليل على أن البسط هنا في الإنفاق هو وجود الفعل "ينفق"، فالتركيب القرآني هنا يخبرنا عن الله عز وجل بجملة اسمية، وهي: يداه مبسوطتان" في قوله تعالى: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ(٦٤)" سورة المائدة.

---

(١) من معاني "إلى انتهاء الغاية. انظر الزمخشري،أبا القاسم – المفصل في صنعة الإعراب ص ٣٨٠.

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة ب س ط.

الـنمط الرابـع: دلالتـه نهـي القرآن فيهـا عن "كل " البسط ، ويوجهنـا إلـى "بعض" البسط، أو الاعتدال فـي الإنفاق. فـي قولـه تعالى " وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ(٢٩)" سورة الإسراء.

الجملة الفعلية المؤكد فعلها بالمفعول المطلق، وهي مكونة من:

الفعل + الفاعل + اليد: مفعول بـه + كل + المصدر "مضاف إليـه" من الفعل الثلاثي "بسط".

الذي ينظر في التراكيب القرآنية السابقة التي استعمل فيها الجذر "بسط " سيجد أن الصيغ المستعملة هي : بسط – يبسط – باسط – مبسوطتان – تبسط.

فالصيغة الاسمية وردت بصيغة اسم المفعول: مبسوطتان، ووردت وصفاً لله "يداه مبسوطتان" واستُعملتْ مرة واحدة. أما صيغة اسم الفاعل "باسط" فوردت في مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ.

وصيغة الفعل "بسط" وردت في "لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ"، وصيغة المضارع هي الأكثر ورودا في الآيات.

والملاحظ في هذه الآيات أن دلالتها تتوقف على عناصر السياق اللغوي أي التركيب والموقف أو المقام والمُخاطَب فيه، فهي تؤثر كثيرا في تحديد معنى البسط، وهل هو في الخير أو الشر؟

أولاً: مَن الفاعل في الجملة الفعلية؟

هل هو عنصر خير أو شر؟ فلا بد من الكشف عنه من خلال المقام.

ففي النمط الأول "إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ"، إن الفاعل في "يبسط" هو الله عز وجل، فلا يكون منه إلا الخير. وهو وحده القادر على البسط والقبض.

والفاعل في النمط الثاني، هو قابيل أخو هابيل "بسطتَ" "لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ" فالمتوقع منه السوء، أما الفاعل في "ما أنا بباسط يدي"، وهو الكائن في اسم الفاعل "باسط" فهو هنا الإنسان الذي يخاف الله رب العالمين، فلا يمكن أن يبسط يده للقتل.ولذلك نفى" ما أنا"(وفاعل "بسطت" التاء هي الفاعل، فهو باسط أيضا "قابيل").

والفاعل في "يبسطوا" هو واو الجماعة التي تعود على "قوم" وهم من الكفار الذين أرادوا قتل المؤمنين المُصلين، ولكن الله كف أذاهم. إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ"

والفاعل في قوله "يبسطوا" في قوله تعالى: "إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ" هم أعداؤهم الذين لن يكون من جانبهم البسط إلا بالسوء قتلاً أو سبًّا بالألسنة.

ثانياً: استعمال وسائل التأكيد ذات الدلالات المحددة

فاستعمال "كل" في جملة النهي في "وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، فإذا كان من صفاته الله : البسط للرزق، فصفة البسط محببة ولكنها لا تكون بإسراف عند الإنسان، أي لا يكون "كل البسط" فاستعمال المصدر من "بسط" هو الرابطة بالفعل "تبسطها" وهي رابطة شكلية تربط ظاهر الجملة، أو تربط أولها بآخرها باستعمال نفس الجذر ب س ط، فكأن البسط أحكم رباط الجملة من طرفيها. إن التركيب لم يقل: لا تبسطها بسطاً أو لا تبسطها بسطاً شديداً.

بل قال: كل البسط، أي لا تبسط كل طاقة الإنفاق لديك.

فدلالة التركيب هنا حددها استعمال: كل: نائب عن المفعول المطلق + مصدر الفعل في الجملة. ووسائل الترابط النحوي بين أجزاء الجملة وثيقة. وكذلك الضمير "ها" في "لا تبسطها" يعود على "يد" في الجملة المعطوفة عليها في قوله تعالى" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ". وذلك لأن هذه اليد نفسها مطلوب منها ألا تكون مغلولة وألا تكون مبسوطة كل البسط".

وعدم استعمال وسائل التأكيد له دلالته، فقوله تعالى "بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ" فلم يستعمل "إنَّ" ليؤكد"، وذلك يفهم منه أن الخطاب والخبر موجَّه للمؤمنين الذين يصدقون ولا يُنكرون. فالدلالة في هذه التراكيب نفهمها من خلال هوية الفاعل والموقف المستعمل فيه: البسط" وكذلك الخطاب موجَّه لمن.

ثالثًا: استعمال حروف الجر ودلالتها في التركيب:

فالفعل: "بسط له" غير "بسط إلى"، وذلك مثل:

في قوله تعالى "إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"

يبسط + الرزق + اللام (لمن يشاء)

وفي قوله تعالى "أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ"، وقوله تعالى "بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ".

فالتركيب في الآيتين هو: يبسط + إلى ومجروره + المفعول به.

فالبسط بالإنفاق باستعمال اللام، وكأنها منحة من الله لك أو لأي مخلوق. أما بسط الأيدي "إلى" فهو فعل السوء قتلا أو أذًى باللسان.

إذن في العلاقات التركيبية تظهر دلالة الأدوات التي تربط بين أجزائه، فترى في أجزائه الصغرى ما يميز تركيبا عن آخر، فإذا استعملت اللام فله معنى، وإذا كانت "إلى" فله دلالة أخرى.

الخاتمة

وفيها الخلاصة التي انتهى إليها البحث:

١- إن القرآن الكريم بوصفه نصًا لغويًّا يحتاج إلى الكثير من الدراسات المتعمقة التي تُعنى بالنص ودقائقه، وكذلك الدراسات التي تنفتح على العلوم الأخرى، فكما بدأت الدراسات اللغوية متصلة بالعلوم الأخرى فأفادت من الفلسفة والمنطق وعلم النفس وغيرها كان لابد من استمرار الاتصال بهذه العلوم وغيرها مما له صلة باللغة وبالحياة فاللغة ترتبط بالحياة، والحياة متعددة الجوانب، فلابد أن نستضيء في دراسة النصوص بدراسات العلوم الأخرى.

٢- إن قضية استعمال القرآن للصور الحسية للتعبير عن أفكار تجريدية لها جوانب كثيرة تحتاج إلى العديد من التخصصات التي بحثت في قضايا الإدراك والمعرفة والتأثير النفسي والجمال، مثل تخصصات الفلسفة وعلم النفس والبلاغة وغيرها مما يمكن أن تُفيد منه الجوانب المتعددة للنصوص.

٣- خلق الله لنا أسباب العلم والإدراك، وهي وسائل الإدراك حسية وعقلية، ومنها السمع والبصر والفؤاد، وقد تحدث في هذه القضية الفلاسفة وعلماء النفس، وكذلك البلاغيون تحدثوا في استعمال الحواس للوصول إلى إدراك بعض الصور العقلية، وبخاصة فيما يتعلق بالاستعارة، وقد تحدث عبد القاهر الجرجاني في التأثير النفسي لهذا الاستعمال.

٤- تحدث ابن سينا عن الإدراك، وقسَّم قوى النفس إلى قوى مدركة وأخرى محركة، والمدركة تنقسم إلى ظاهرة وباطنة، وأما المدركة فالظاهر منها الحواس الخمس، وفي الباطن هناك القوى الخيالية التي تحفظ ما أدته الحواس من الصور المحسوسة. فالقوة الخيالية حافظة لا يكون ما فيها إلا مأخوذًا عن الحس. فالصور الموجودة في خيالنا منتزعة من المحسوسات من حولنا ليكون لدينا الخبرات والتجارب التي نستعين بها.

وذكر الإمام الغزالي أن الإدراك أَخذ صُورَة الْمدْرَك أو أَخذ مِثَال حَقِيقَة الشَّيْء لَا الْحَقِيقَة الخارجية، فالخارج هُوَ الَّذِي المحسوس انتزع مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الْمَعْقُول هُوَ مِثَال

الْحَقِيقَة المرتسم فِي النَّفس لِأَن الْعقل يجرده إن كان يحتاج إِلَى التَّجْرِيد. ويربط الإمام الغزالي كذلك بين القلب والحواس قائلا: اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس؛ لأن القلب أيضاً خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركاً بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس.

٥- أما علم النفس المعرفي فقدَّم دراسات ربطت بين الإدراك والحواس، وجعلت دور الحواس عظيما في المعرفة، فالظواهر المعرفية العليا مثل التفكير والتذكر والتنظيم الدلالي في رأي علم النفس المعرفي، ما هي إلا نتيجة لأحداث تقع حول الكائن الحي ومن ثم فإن دراسة الإشارات الحسية ربما تمدنا بمفاتيح لمعرفة كيف تطورت مثل هذه الظواهر العقلية العليا، فتخزين المعلومات في الذاكرة بشكل مجرد تم بناء على معرفتنا بالطبيعة الواقعية للخبرات الحسية، الأمر الذي يساعدنا على تحديد مدى هذا التجريد.

٦- لقد لاحظ اللغويون العلاقة بين الدلالات الحسية والدلالات المجردة في مجال التطور اللغوي، فالباحثون مجمعون في نشأة الدلالة على أنها بدأت بالمحسوسات، ثم تطورت، كما ذكر أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس أن الدلالات المجردة تشير إلى تطور العقل الإنساني ورقيه، فكلما ارتقى التفكير العقلي جنح إلى استخراج الدلالات المجردة والاعتماد عليها في الاستعمال. ولأن الدلالات الحسية تكون غالبا مرتبطة بأعضاء جسم الناس الحسية، فقد ربط بعض اللغويين بينها وبين الاستعمالات المجازية، فكما قال أولمان عن أعضاء جسم الإنسان إنها مركز للمجازات اللغوية.

٧- القرآن وجد العرب يستعملون أسماء أعضاء جسم الإنسان ووظائفها في التعبير عن معان مجازية، فقدَّم لنا صورا تُعجِز عن الإتيان بمثلها دلالةً وتأثيرًا في النفس. إن القرآن إما أنه صنع صورا تُفهَم دلالتها باستعمال هذه الأعضاء ،مثل "قري عينا"، أو صنع صورا ندركها بهذه الأعضاء مثل"يثنون صدورهم".

٨- إن التطور في دلالة المفردات يتجه من المحسوس إلى المجرد، وربما حدث بمرور الزمن أن اختفت الدلالة الحسية، أما في حال التراكيب اللغوية التي تستعمل المحسوسات للتعبير عن مجردات فإنها ترسم بها صورة كاملة يستخلص بها العقل

المعاني التي تظل عالقة بالنفس من خلال الصورة المجردة فيه، وكلما قرأ التركيب أو سمعه أحدث فيه هذا التأثير النفسي. فليس ما يحدث من تجريد للمعنى في المفردات يكون في التراكيب، فالمفردات عندما يتطور معناها أو يتجرد فهناك دلالة أخرى تدخل على اللفظ ، وقد تقوى إحداهما على حساب الأخرى، أما تجريد التركيب فهو تجريدُ صورةٍ تختزن في العقل أو النفس، إنه تكوين جديد حينما نتصور عندما نقرأ قوله تعالى "مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" أن هناك مدنًا للظالمين، وسيكون في المقابل مدن للمؤمنين، فالصورة تُولِّد تصورات لا تتوقف، وتتزاحم المعاني ويزداد الأثر النفسي.

٩- في الدراسة التطبيقية التركيبية قمت بدراسة تراكيب قرآنية تخص فكرة البحث،هي: قوله تعالى "قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ""، و"أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ، و"وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا"، و"أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ"، و"كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ"، و"وَقَرِّي عَيْنًا" ،و"فإنك بأعيينا"، و"اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا"، و"وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي"، و "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ".

١٠- في كل تركيب أفدت من أقوال المعجميين والمفسرين، لمعرفة هل هذا التركيب سبق استعماله عند العرب، وكذلك آراء المفسرين فيه لأنهم لهم خبراتهم العظيمة في العربية، ودرستُ التراكيب من حيث التماسك الشكلي أو النحوي، والتماسك الدلالي، وأفدت من معطيات علم لغة النص في تحليل النصوص بالانفتاح على السياق الخارجي وعناصره من متكلم وفاعل ومخاطبين وغير ذلك، كذلك قمت بعمل مقارنات بين صياغة التركيب بالفكرة المجردة وصياغة التراكيب الحسية، ومزايا التعبير الحسي عن استعمال الدلالات المجردة، وأفدت من نتائج الدراسات الفلسفية والنفسية في الجانب الإدراكي النفسي.

١١- في تحليل التركيب الأول (هو أذن) استعمله العرب ذمًّا ولمزًا، وحوَّله القرآن مدحًا وثناءً في قوله "قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ"، مع التزامه بنظام الجملة الاسمية وانطلاقه من التركيب الأول، والبناء عليه، وحددت قوة الروابط الشكلية والدلالية بينهما،

والمقارنة بين التركيب المجرد والتركيب الحسي "هو أذن"، ثم بين "هو أذن" و" أذن خير لكم".

١٢- وفي التركيب (يثنون صدورهم) احتاج تحليله إلى مكونات الموقف الذي تعبر عنه الآية، إنه فعل المنافقين، والصدور إما أن تكون حقيقية أو معنوية بمعنى النفوس، والشيء المَطوِيّ في عملية الثني هو العداوة للنبي ،فالمعنى المراد التعبير عنه تجريدي، وتحول إلى حسي بهذا التركيب. وكان لابد من المقارنة بين التركيب المباشر "يُضمرون عداوتهم" وتركيب القرآن "يثنون صدورهم" وتحليل التركيبين.

١٣- وفي قوله "وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا" رأينا كيف عامل القرآن المساكن، وكيف تم التهوين من قيمة مساكن الدنيا، والمقارنة بين التركيب القرآني المحسوس بالمشاهدة والتركيب الذي يحمل الفكرة المجردة "كنتم من الظالمين"، فانتقال المكونات الدلالية للمسكن إلى موقف الظالمين، فكما أن الإنسان يختار مسكنه فإنهم اختاروا موضع الظالمين، وكما أن الإنسان يستقر في مسكنه ويصمم ويتمسك به فقد ظل هذا موقفهم رغم معرفتهم بما حدث من عقاب لساكنيه.

١٤- وفي أثر التركيب (لهم قدم صدق) من دلالة قوة الثبات بوضع القدم الذي لا يستطيع أحد زحزحته. هذا المعنى الذي تدركه حاسة البصر "قدم صدق"، لو قارناه بفكرته المجردة بأنهم "حازوا مكانة رفيعة" لتبينت مزيته. فضلا عن أن تصوُّر معنى (الصدق) الذي له (قدم)، فهو تجسيد لمعنى الصدق وثباته بهذه القدم. كذلك البحث في الدلالات المستعملة فيها (القدم).

١٥- ودراسة التراكيب "ران على قلوبهم" وما كان من ربط بعض المعجميين والمفسرين بينه وبين قوله "ختم على قلوبكم" و"طبع على قلوبهم"، والتحليل الذي أدى إلى اختلاف مكونات: ران وختم وطبع، فضلاً عن أن الدراسة التركيبية حددت الفاعل في "ران" مختلفاً عن الفاعل في "ختم" و"طبع". وكذلك المقارنة بين الفكرة التجريدية لغلبة الذنوب على القلب وبين تراكم طبقات الصدأ على القلب، وهو

تعبير القرآن (ران على قلوبهم). فالصدأ على الأشياء يتم بشكل تدريجي أما الختم والطبع فقرار إلهي.

١٦- وفي التراكيب التي وردت فيها "العين" تم توظيف حركاتها أحيانًا في مثل "قري عينا" وتم استعمال وظيفتها في مثل "بأعيننا" و"عَلى عَيْنِي". وتم تحليل التركيب "بأعيننا" والنظر في السياق هو الذي يحدد معناه، فتعلُّق "بأعيننا" بالجملة الفعلية يختلف عن وجودها في الجملة الاسمية؛ إذ هي مع الجملة الاسمية قد تكون أحد شِقَيْ الجملة بمعنى أنها عمدة. وكان لابد من دراسة "بأعيننا" مع كل تركيب من التراكيب القرآنية: "فإنك بأعيينا"، و"اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا"، و"وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي"، و"تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا". مما يترتب عليه الفارق الدلالي بينها، وكذلك الفارق بين التعبير الحسي المستعمل في القرآن وفكرته التجريدية.

١٧- وفي التركيب "لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ" و"وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، درست دلالات الغل والبسط، وأنماط التراكيب التي ورد فيها البسط في القرآن وارتباط ذلك بدلالاتها، وكذلك المقارنة بين التعبير الحسي "لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ" وبين الفكرة المجردة مثل "لا تكن بخيلا" ومزايا الصورة الكلية التي رسمها القرآن لنراها بأعيننا.

**

المصادر والمراجع

١- د.إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو ١٩٨٠.ص ١٦١-١٦٢.)

٢- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (٣٩٥هـ)- معجم مقاييس اللغة-المحقق: عبد السلام محمد هارون- الناشر: دار الفكر- ١٩٧٩م.

٣- أحمد بن محمد بن حنبل ،أبو عبد الله (٢٤١هـ)- مسند الإمام أحمد بن حنبل- المحقق: أحمد محمد شاكر- دار الحديث – القاهرة، ط١/ ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٤- أ.د.أحمد مختار عمر:

أ-علم الدلالة، عالم الكتب، ط٣/ ١٩٩٢.

ب-ب-معجم اللغة العربية المعاصرة -عالم الكتب- ط١، ٢٠٠٨ م.

٥- أحمد القبانجي ، النفس في الفكر الإسلامي، الناشر كتاب آشنا. قم ، المؤسسة الإسلامية للترجمة ط١ ،١٣٧٨هـ.

٦- إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء (١١٢٧هـ) - روح البيان-الناشر: دار الفكر – بيروت.

٧- أولمان ، ستيفن أولمان ،دور الكلمة في اللغة، ترجمه وعلق عليه أ.د. كمال بشر، مكتبة الشباب ، ١٩٧٥.

٨- أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي (٣٣٥هـ) - الأوراق قسم أخبار الشعراء- شركة أمل، القاهرة- ١٤٢٥ هـ.

٩- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق:محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١ - ١٤١٨ هـ.

١٠- الجرجاني - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (٤٧١هـ):

أ-أسرار البلاغة -علق عليه: محمود محمد شاكر- مطبعة المدني بالقاهرة.

ب-دلائل الإعجاز في علم المعاني ، المحقق: ياسين الأيوبي- المكتبة العصرية- الدار النموذجية- ط١.

١١- جمال الدين الكجراتي، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي (٩٨٦هـ)- مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار- مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية- ط٣، ١٣٨٧ هـ.

١٢- جوزيف ميسنجر، لغة الجسد النفسية، ترجمة محمد عبد الكريم إبراهيم، دار علاء الدين – سوريا، ط ١، ٢٠٠٧م.

١٣- الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (٣٩٣هـ) - تاج اللغة وصحاح العربية- تح: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين – بيروت- ط٤/١٤٠٧هـ.

١٤- ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (٣٥٤هـ) - الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تح: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٨ م.

١٥- حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، مخطوطة الجمل – معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن – الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر- ط١، ٢٠٠٨ م.

١٦- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (٧٤٥هـ) - البحر المحيط ،المحقق: صدقي محمد جميل- دار الفكر – بيروت١٤٢٠ هـ.

١٧- الخطابي ،أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب (٣٨٨ هـ)-غريب الحديث- المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي- دار الفكر- دمشق - ١٩٨٢م.

١٨- الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن ابن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (١٧٠هـ)- كتاب العين ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال.

١٩- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (٣٢١هـ)- جمهرة اللغة -المحقق: رمزي منير بعلبكي- دار العلم للملايين – بيروت – ط١، ١٩٨٧م.

٢٠- دي بوجراند ،النص والخطاب والإجراء ،ترجمة د.تمام حسان ،عالم الكتب ١٩٩٨.

٢١- روبرت سولسو، علم النفس المعرفي، ترجمة د.محمد نجيب الصبوة، ود.مصطفى محمد كامل، ود. محمد الحسانين الدق. مكتبة الأنجلو المصرية.ط ٢.سنة٢٠٠٠.

٢٢- روبول (آن) وجاك موشلار،التداولية اليوم – علم جديد في التواصل، ترجمة : د.سيف الدين دغفوس ود. محمد الشيباني ومراجعة د. لطيف زيتوني ،المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للنشر ط١ /٢٠٠٣.

٢٣- الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق (٣١١هـ) – معاني القرآن وإعرابه، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي – عالم الكتب، بيروت– ط١/ ١٤٠٨ هـ.)

٢٤- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله(٥٣٨هـ)– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل– دار الكتاب العربي ،بيروت– ط٣ – ١٤٠٧ هـ.

٢٥- السبكي بهاء الدين، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، (٧٧٣ هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح –المحقق د. عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – ط١، ١٤٢٣هـ.

٢٦- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (٩٨٢هـ) تفسير أبي السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٧- ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (٢٤٤هـ) كتاب الألفاظ (أقدم معجم في المعاني)– المحقق: د. فخر الدين قباوة– مكتبة لبنان ناشرون– ط١، ١٩٩٨م.

٢٨- السمرقندي ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (٣٧٣هـ) : تفسير السمرقندي(بحر العلوم)– تحقيق: د. عبد الرحيم أحمد الزقة، ط ١، مطبعة الإرشاد، بغداد،١٩٨٥ م.

٢٩- السمين الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (٧٥٦هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، تح:د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

٣٠- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (٤٥٨هـ)-المحكم والمحيط الأعظم المحقق: عبد الحميد هنداوي- دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١، ١٤٢١ هـ.

٣١- ابن سينا الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله (٤٢٧هـ)، المبدأ والمعاد، باهتمام عبد الله نوراني، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٩٩٨م.

٣٢- شهاب الدين النويري (٧٣٣هـ)،أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي ، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية ط١، ١٤٢٣هـ.

٣٣- الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (١٢٥٠هـ) –

أ- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول- المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي- دمشق – ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

ب-فتح القدير- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب-دمشق، بيروت - ١٤١٤هـ.

٣٤- الطبري أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد، (٣١٠هـ) تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن – تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ومركز البحوث والدراسات الإسلامية، د. عبد السند حسن يمامة- دار هجر للنشر – ط١، ١٤٢٢ هـ.

٣٥- أبو الطيب القنوجي، محمد صديق خان بن حسن بن علي(١٣٠٧هـ)- فتحُ البيان في مقاصد القرآن-راجعه:عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري،المَكتبة العصريَّة، بَيروت ١٤١٢ هـ.

٣٦- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (١٣٩٣هـ)- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»- الدار التونسية للنشر- تونس- ١٩٨٤هـ.

٣٧- ابن عبد ربه،أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد سالم الأندلسي (٣٢٨هـ) - العقد الفريد- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١، ١٤٠٤هـ .

٣٨- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ) - لطائف الإشارات = تفسير القشيري- المحقق: إبراهيم البسيوني- الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر- ط٣ .

٣٩- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (٢٢٤هـ) - غريب الحديث- المحقق: د. محمد عبد المعيد خان- مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن- ط١، ١٣٨٤ هـ .

٤٠- أبو عبيد الهروي، أحمد بن محمد (٤٠١ هـ) الغريبين في القرآن والحديث- تحقيق: أحمد فريد المزيدي -راجعه: أ. د. فتحي حجازي - مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية- ط١/١٩٩٩ م.

٤١- ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الحسني (١٢٢٤هـ)- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- المحقق أحمد عبد الله القرشي رسلان- الناشر: د.حسن عباس زكي - القاهرة . ط١/ ١٤١٩ هـ.

٤٢- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، أبو محمد الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ) - تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)- المحقق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي- دار ابن حزم - بيروت- ط١، ١٩٩٦م

٤٣- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي (٥٤٢هـ)- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية - بيروت-ط١ - ١٤٢٢ هـ.

٤٤- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (٥٠٥هـ) :

أ-إحياء علوم الدين- دار المعرفة - بيروت.

ب-معارج القدس في مدراج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة -بيروت- ط٢،١٩٧٥.

٤٥- الماتريدي، أبو منصور(٣٣٣هـ) ، محمد بن محمد بن محمود، - تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)- المحقق: د. مجدي باسلوم- دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠٥ م.

٤٦- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (٤٥٠هـ) - تفسير الماوردي = النكت والعيون- المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم - دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

٤٧- الفارابي ، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين(٣٥٠هـ) - معجم ديوان الأدب، تحقيق: د.أحمد مختار عمر- مراجعة: د.إبراهيم أنيس، دار الشعب، القاهرة- ١٤٢٤ هـ .

٤٨- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله (٢٠٧هـ) -معاني القرآن-المحقق: أحمد يوسف نجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل شلبي- دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر- ط١.

٤٩- أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (٣٩٠هـ) - الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي- المحقق: عبد الكريم سامي الجندي- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان- ط١/ ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥٠- الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)- القاموس المحيط-إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي- مؤسسة الرسالة للنشر - لبنان- ط٨- ٢٠٠٥ م.

٥١- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦هـ) -غريب القرآن لابن قتيبة- المحقق: سعيد اللحام. د.ت.

٥٢- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٧٤هـ) - تفسير القرآن العظيم- المحقق: سامي بن محمد سلامة- دار طيبة للنشر- ط٢/ ١٩٩٩ م.

٥٣- الكفوي، أبو البقاء، موسى الحسيني (١٠٩٤هـ)- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية تح: عدنان درويش -محمد المصري-مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥٤- المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس (٢٨٥هـ)- الكامل في اللغة والأدب- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم- دار الفكر العربي – القاهرة- ط٣/ ١٤١٧ هـ.

٥٥- مجاهد- أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي (١٠٤هـ)- تفسير مجاهد- المحقق: د.محمد عبد السلام أبو النيل- دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر- ط١، ١٤١٠ هـ .

٥٦- محمد الأمين الشافعي، الشيخ العلامة ابن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن-إشراف ومراجعة: د.هاشم محمد علي بن حسين مهدي- دار طوق النجاة، لبنان- ط١، ١٤٢١هـ .

٥٧- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (١٣٩٣هـ) – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت – ١٤١٥ هـ.

٥٨- د. محمد حسن حسن جبل ، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها) – مكتبة الآداب – القاهرة – ط١، ٢٠١٠ م.

٥٩- محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق- ط١٠- ١٩٩٣م.

٦٠- محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (نحو ٥٥٠هـ) ، إيجاز البيان عن معاني القرآن، المحقق: د. حنيف بن حسن القاسمي – دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط١- ١٤١٥ هـ .

٦١- د. محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي- دار الفكر العربي ١٩٩٧.

٦٢- محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (١٤٠٣هـ) – إعراب القرآن وبيانه – دار الإرشاد للشئون الجامعية (دار اليمامة – دمشق – بيروت)، ط٤ ، ١٤١٥هـ.

٦٣- د. مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب :دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة – بيروت ط١ ، ٢٠٠٥.

٦٤- المُطَرِّزِيّ أبوالفتح، برهان الدين الخوارزمي، ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على (٦١٠هـ)- المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي .د.ت.

٦٥- النسفي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (٧١٠هـ)- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)-تح: يوسف علي بديوي- راجعه: محيي الدين ديب مستو - الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت- ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٦٦- نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (٥٧٣هـ)- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم- د حسين بن عبد الله العمري- مطهر بن علي الإرياني- د. يوسف محمد عبد الله - دار الفكر المعاصر (بيروت)، دار الفكر (دمشق)- ط١ ، ١٤٢٠ هـ .

٦٧- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن مهران (نحو ٣٩٥هـ)، الفروق اللغوية، حققه: محمد إبراهيم سليم- دار العلم والثقافة للنشر، القاهرة – مصر. ١٩٩٨.

* * *